

السنة السادسة (ذو الحجة سنة ١٣٥٨ هـ - يناير سنة ١٩٤٠ م) العدد الثالث

صحيفة دار العلوم

مر ١ ٢ ١٩٣٤ ع ٢

نصدرها «جماعة دار العلوم»
كل ثلاثة أشهر

رئيس التحرير

محمد علي مصطفى

المدير

محمد نجيب حياينة

المراسلات الخاصة بالتحرير ترسل باسم رئيس التحرير

بنادي دار العلوم ٧٧ شارع الملكة نازلي

الاشتراكات والحوالات المالية

ترسل باسم أمين الصندوق

السباعي بيومي

المدرس بدار العلوم

مكتب بريد الدواوين

الاشتراك السنوي

٢٠ قرشاً	في القطر المصري
٦ شلنات انجليزية	خارج القطر
٥ قروش	ثمان العدد

مطبعة العلوم بشارع انجيلج بجنته لاط

إِنْ سَاحًا مُدَقِّقًا لَوْ أَرَادَ أَنْ يَغْتَرِفَ أَنْ تَمُوتَ
اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ وَأَنْ تَحْيَا الْوَجْدُهَا تَمُوتُ فِي كُلِّ مَكَانٍ
وَتَحْيَا فِي أَمْرِ الْعُلُومِ

الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده

فهرس

العدد الثالث من السنة السادسة

الكاتب	الموضوع	صفحة
الأستاذ محمود الطنيجي	فقيد الإسلام والسلام الشيخ طنطاوي	٣
الدكتور أحمد ضيف	جوهري	٩
الأستاذ أحمد يوسف نجاتي	نهج التفكير العربي في الأدب	١٣
» عبد اللطيف المغربي	الزبير بن عبد المطلب بن هاشم	٤٢
» محمد خلف الله أحمد	الموسيقا في الأدب العربي	٤٩
» علي النجدي ناصف	نهج القرآن	٥٨
» محمد أحمد برانق	وطنية المتنبي	٦٩
» عبد الرزاق حميدة	العباسي	٨٦
للشاعر الأستاذ فايد العمروسي	الراحة	٩٨
» محمد عبد الغني حسن	رحلة طائر « قصيدة »	١٠٢
للأستاذ عبد العزيز عتيق	شاعر « قصيدة »	١٠٣
» عطية الشيخ	كنز الراعي « قصة إيرانية »	١١٣
» عبد العظيم بدوي	الأدباء	١١٩
	أى أم رحيمة في ثيابه « قصيدة »	

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

فقيه الاسلام والسلام

الشيخ طنطاوى جوهرى

نعت الصحف إلى العالم المثقف فى الشرق وفى الغرب الشيخ طنطاوى جوهرى ، مات الشيخ وقد كان إنساناً يدرج على الأرض كغيره من الناس ، ولكنه لم يكن واحداً من المهرجين أو هواة الشهرة ، الذين يدقون الطبول ، ويسرون مع الرياح ؛ ولذلك مات غير معروف من كثير من المصريين . كان يدرج على الأرض ولكنه روحه كانت تخرج إلى السماء فتطل على مفكرى العالم فى الشرق وفى الغرب ، فعرفوه وقدروه ، بل حج بعض مفكرى الغرب والشرق إلى مصر ليتعرفوا إلى الشيخ طنطاوى وجهاً لوجه ، بعد ما تعرفوا إليه فى أبحاثه وأفكاره فى مؤلفاته الكثيرة وفى فلسفته الوداعة الداعية إلى السلام .

فقد جاء العلامة «كرستيان جوب» من لكسمبرج وجازر في جمعية الشبان المسلمين عن الشيخ طنطاوى . وقد نشر المقطم الأغر في عدد مساء السبت ٨ يناير سنة ١٩٣٨ مائنه :

وختم محاضرته بالإشادة بآراء الفيلسوف الشيخ طنطاوى جرهري في هذا الموضوع وقال : إنه حضر إلى مصر هذه المرة خصوصاً للتشرف بمعرفته شخصياً بعد ما عرفه عن بعد ، وترجم كتابه «أهموم في السياسة» ، «أين الإنسان» وبين أن الكتاب الأخير يبحث في أعقد المشكلات العالمية بحثاً عجزت أوروبا إلى اليوم عن الإتيان بمثله . قال . . «إني أعلن أن خير كتاب أخرج للناس في هذا الشأن هو كتاب «أين الإنسان» الذي يرسم للعالم بأسلوب فلسفي عميق ، طريقه المستقيم إلى السلام الدائم الذي رسمه الله في قوله تعالى «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير» .

وكذلك أرسل إليه حضرة صاحب الجلالة رضا شاه بهلوى رسالة بقلم معالى وزير خارجية إيران ، وقد ذهب معالى الوزير المفوض لإيران إلى الشيخ طنطاوى في منزله وسلمه الخطاب تكريماً له ، واعترافاً بفضله . وجلالة الامبراطور لم يشكر الأستاذ عفواً بل لقد رفع له تقرير مؤرخ ١٩١٤/٥/٤ عن قيمة كتاب «أحلام في السياسة» .

ومن الغريب بل من المضحك بل من الحزن أن علماء أوروبا يظنون بنا الخير كل الخير ، فهم حين يؤدون في زعمهم بعض الواجب عليهم نحو الشيخ طنطاوى من تقارير لكتبه تنشر في أمهات المجلات العلمية . ومن ترجمة

لكتبه إلى أكثر من لغة ، يعتقدون أننا نحن المصريين نقدر الشيخ طنطاوى ونحفل به، والقارىء يعرف مقدار هذا الظن الحسن من الصحة وإليك بعض ما جاء فى مجلة العلوم الشرقية للفيلسوف «سانتيلانه» الإيطالى فى سنة ١٩١١ تقريبا لكتاب (أين الإنسان) فقد ابتدأ التقرير بعبارة يندى لها جبين المصريين المثقفين إذ يقول :

« ليس من يجهل بمصر الشيخ طنطاوى جوهرى المدرس بمدرسة المعلمين الناصرية (دار العلوم) فهو ذلك الكاتب النحرير والمحرر الشهير، ذلك الإنسان ذو العقل الكبير ، بل هو أحد رؤساء الحركة السياسية الاجتماعية التى انتشرت فى كافة طبقات الشعب الإسلامى تحت اسم الجامعة الوطنية ، تلك الحركة التى ترمى إلى الاستقلال السياسى والإصلاح الدينى طبقا لمنهج مرسوم بعيد المدى، مشوب بشيء من الإبهام ، وذلك بقصد التوفيق بين العلم وما جاء به القرآن الكريم ، إلى أن قال « فمادون فى هذا المعنى كتابان جديران بالذكر وهما « نظام العالم والأمم » و « نهضة الأمم وحياتها » .

وآخر ماصدر من مؤلفات ذلك العلامة الكثير الآثار هو كتاب «أين الإنسان ، ذلك الكتاب الحديث الذى انتشر منذ عهد قريب، وهو الذى أردنا التعريف عنه أخيرا .. ثم قال « والحق يقال ، إنه لعمل جليل عظيم فى قالب اجتماعى سياسى، ليس موجه إلى المصريين فقط بل للعالم كله ؛ لأن المسألة التى يريد حلها هى مسألة العالم بالإجماع » .

وقال فى صفحة ٧٧٣ بعد أن لخص الكتاب ما نصه :

هذا كتاب الشيخ طنطاوى جوهرى الذى أردنا أن نوسع له فى مجلتنا

وماهى بالعادة المتبعة لديها ؛ لأن ذلك الكتاب من الكتب العظيمة الدالة في الوقت الحاضر على مبلغ أفكار شعور الطبقة الراقية الإسلامية .

وقد كان للشيخ طنطاوى عدة نواح: ناحية إسلامية وطنية . وناحية عالمية اجتماعية ، فقد جاهد في رفعة شأن الإسلام ، والانتصار لمبادئه . فمن الكتب التى ألفها وأصدرها في هذه الناحية تفسيره المسمى الجواهر ، إذ بعد أن أحيل إلى المعاش انكب على تفسير القرآن حسبة لوجه الله ، ومن جملة علوم الأمم حديثها وقديمها بالقرآن ، رابطا كل ما جد من مختلف النظريات في مختلف الفنون بمعانى أدبه ، كاشفا عن بعض أسرارها .

ويشهد له التاريخ بأنه كان من أخلص أنصار القضية المصرية ، ومن العاملين على استقلال البلاد استقلالا لا تشوبه شائبة ، فله أناشيد وطنية كانت تردد أيام مؤسس النهضة المصرية مصطفى كامل وقد نشر تباعا في جريدة اللواء كتابه « نهضة الأمة وحياتها » توجيها للأذهان وبعثا للعزائم .

وقد قدمت إليك ماقاله العلامة « سانتيلانه » معترفا بأن الشيخ طنطاوى من رؤساء الحركة السياسية الاجتماعية التى انتشرت في كافة طبقات الشعب الإسلامى تحت اسم الجامعة الوطنية .

وإليك ماجاء في كتاب مفكرى الإسلام للبارون (كرادى ثر) في المجلد الخامس منه تحت عنوان :

وصف إجمالى للنهضة المصرية الحديثة ثم قال :

« وللشيخ طنطاوى جوهرى القدر المعلى نذكره هنا قبل الكلام على كتابه « أين الإنسان » ثم قال « إننا سنبين ثلاثة المظاهر الرئيسية لتطور

مصر الحديث « ثم كتب أمام المظهر الثاني « العناية التي أظهرها رجلان من رجال الدين وهما الشيخ محمد عبده والشيخ طنطاوى فى تمثيل الدين الإسلامى وتأثيره فى النفوس للنهوض بها إلى التطور الحديث « .
رحمه الله رحمة واسعة وعوض دار العلوم خيرا فى فقده .

محمود الطنيجي

مدرس بالحدادية

نهج التفكير العربي في الأدب

للمستاذ الدكتور أحمد صيف

وكيل دار العلوم

كانت حياة العربي حياة بسالة وشجاعة، وحياة نجمة وارتحال تدعوه إلى الدناغ عن نفسه وأهله، ولم يكن يعنى بشئ. عنايته بحفظ كرامته. يعيش عيشة الأبطال، وعيشة البدو والرعاة: بين جملة وناقته، وسيفه ورحله، بعيداً عن الحضارة وزينتها، والعلوم وشكوكها، فكانت حياته أشبه بحياة خيالية شعرية، تشبه من بعض الوجوه تلك الحياة التي رسمها هوميروس في أساطيره وسطرها في قصته المشهورة « بالإلياذة ».

وكانت تلك الحياة يلائمها التحدث عن النفس، والتغنى بالفضائل، من كرم وشجاعة، وعلو في الهمم، وغفر بالأحساب. وكان العربي بفطرته فصيحاً بليغاً، قترى لديه ذلك الأسلوب الخطابي، واتخذ لسانه عدة للإشادة بنفسه وقومه، ومزج ذلك بتأملاته في الحياة، وإلهاماته الفطرية: من حكم، وأمثال، وعبر، ثم بأثر المنظورات في نفسه، فكان ذلك هو شعره الجميل، وأثره البليغ. كذلك نشأ الفكر العربي في دائرة محدودة متصلة تمام الاتصال بحياته الفردية، واستمد كل آرائه منها، فكانت منبت فكره، وهوردأخيلته، ومهبط وعيه التقني: في شعره، وأحاديثه، وضروب الكلام، وفنون التعابير: حتى كانت هذه الحياة الخاصة به هي كل الأدب العربي، الذي يتحدث فيه الشاعر عن ميوله وأهوائه، وحبه وبغضه، ووصفه لما يرتسم في نفسه من مظاهر

الكون وجماله ؛ فتجمعت قوة التفكير لديه في كل ماله صلة بحياته الفردية ،
فتغنى في شعره بكرم أصله ، وطيب أخلاقه ، وعلو همته ، وقوة شجاعته ،
وإخلاصه في حبه ، وتمدحه بميوله الغرامية في شيء من الشجاعة وطهارة
النفس ، فكانت كل أغراضه في كلامه الفنى العميق ترمى إلى التحدث بنفسه
وقوله ، كما قال السموءل :

تعرينا أنا قليل عديدنا فقلت لها : إن الكرام قليل
وما ضرنا أنا قليل وجارنا عزيز وجار الأكثرين ذليل

.....

وقد تكون هذه المعانى وأمثالها مما هو معروف في شعر العرب : من
وصف الحروب والنضال بين الأفراد والقبائل — ليست وصفا لحياة الشاعر
وحده ، بل وصفا لحياة قومه وعشيرته ، ممزوجة بحياته الفكرية ، ومحتوية على
كل مايجول بخاطره ، ولكنها صورة لنفسه قبل أن تكون صورة لغيره .
وهذه المعلقات وأمثالها من الشعر الجاهلى والإسلامى صورة من هذا
الشعر المملوء بالمعانى والأغراض المختلفة فى القصيدة الواحدة التى ترجع كلها:
إلى بث روح الشاعر ، ورسم حياته النفسية .

لهذا يمكن القول بأن التفكير العربى فى جملته يدل على نزعة فردية ؛
الغرض منها التحدث عن النفس لاعتى الحياة الإنسانية العامة ؛ ولكنه بوصف
طبيعته الإنسانية قد يتدفع لغير قصد ولا مأرب إلى ذكر بعض معانى الحياة
العامة ، ورسم صورها . ولشدة ذكاء العربى وصفاء قريحته ، وقوة شعوره —
لأنكاد نجد حكمة من الحكم ، أو مثلاً من الأمثال ، أو جولة من جولات
الفكر الإنسانى — إلا منبثاً فى طبقات كلامه ، وهذا من مميزات الفكر العربى
التي جعلت آداب العرب جزءاً من التفكير الإنسانى العام .

ألمست تجد فى كلام زهير هذه النزعة الفلسفية الممزوجة بالشعور الفردى؟

فبينما تراه يدعو إلى المحافظة على النفس والدفاع عنها إذ يقول :

ومن لم يزد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

تراه ينصرف إلى جهة من جهات التفكير العام حين يقول :

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمته ومن تخطى يعمر فيهرم

ومثل هذا كثير في أساليب التفكير العربي ، وهو روح أدب العرب ،

ذلك الروح الذى تمشى فى جميع عصور اللغة ، وتغلب على كل نزعة أخرى .

وقد بقيت هذه النزعة الفكرية دعامة الأدب العربى .

فلما امتد سلطان الإسلام ، وجاء عصر بنى أمية - انتقلت هذه النزعة من

ربوع نجد والحجاز وتهامة ومكة والمدينة ، إلى دمشق وبلاد الشام ، وانصبغت

بصبغة إسلامية ؛ لأن الخلاف الذى كان بين القبائل البدوية من أثر البغضاء

والعصية ، ظهر ثانية على ألسنة الشعراء فى لباس دينى سياسى . وكانت حركة

الشعر أدل ماتكون على هذه العصية أو الأطماع السياسية ، كما كانت الكتابة

والخطابة صورة لهذه الأطماع والمذاهب التى تدل فى جملتها على النزعة الفردية

أو القومية العربية التى لاتدعو غير العرب إلى الاهتمام بها .

أما فى العصر العباسى فكان من لوازم هذا التغير الذى حصل من نقل

العلوم والفنون ، وانتشار الفلسفة ، وظهور المذاهب العقلية والاجتماعية ،

وانتقال العرب من حياة بدوية إلى حياة حضرية - أن كان لذلك أثر فى الحياة

الفكرية والأدبية .

أما فى الحياة الفكرية فسنعرض لماحصل فيها من انقلاب فى وقت آخر .

وأما فى الأدبية فنستطيع أن نقول : إن التفكير العربى لم يتغير فى جملته ، ولم

يختلف اختلافا كلياعما كان عليه منذ نشأته : من تسلط النزعة الفردية عليه ،

والرجوع إلى منبع الفكر العربى من حيث الأخيلة ، والمعانى الجزئية ،

والموضوعات أو الأغراض التي كانت معروفة إذ ذاك، بل رجوع الأدباء — ولاسيما الشعراء — إلى طريقة التعبير التي كانت معروفة، وإلى الصناعة اللفظية، وجعلوا الشعر القديم نموذجاً لهم، ومثلاً أعلى ينسجون على منواله، وتقيدوا بكل شيء عربي قديم، حتى في طريقة التفكير والخيال التي تختلف باختلاف كل إنسان. فصار الشعر تحدثاً عن النفس، وصناعة متعملة، وصار الشاعر إذا أحب أو كره، أو مدح أو ذم — محتدياً نمط العربي في شعوره وإحساسه.

ولكن هذه النزعة وهذا التمسك بالأسلوب العربي، حفظ اللغة العربية من الضياع، وحفظ ما فيها من جمال وطلاوة، وكان صورة تاريخية للفكر العربي البدوي، ومورداً للكتاب والشعراء يرجعون إليه، ويدهم بالمعاني والأخيلة البديعة.

هذا في الشعر : أما في النثر فلم تحي فيه روح البداوة حياة طويلة، ولم تعش فيه هذه القريحة العربية الخالصة أكثر من قرن، بل لقد انصبغ بصبغة فكرية جديدة منذ ظهر القرآن الكريم، فتمشى وراء الأزمان والآيام، وما يحدث فيها من تقدم وارتقاء في الحضارة : من علوم، وفنون، وحياة اجتماعية وسياسية؛ لأنه لسان الدهر، وترجمان الحوادث، وتكأة العقل البشري. يتغير بتغير العقول وما يحدث فيها من انقلاب فكري. لذلك لم يثبت على حال واحدة : في موضوعاته، أو في أساليبه الصناعية، أو في أخيلته، أو أساليب التفكير فيه ؟

أحمد ضيف

الزبير بن عبد المطلب بن هاشم

المؤلف: الأستاذ الجليل أحمد يوسف نجاشي

الأستاذ بدار العلوم سابقا

وكلية اللغة العربية الآن

يروى أن معاوية بن أبي سفيان رحمه الله سأل يوما بعض جلسائه من العارفين بالنسب وبيوت العرب عن المنجبات وعن البيوتات ، وحظر عليهم أن يتجاوزوا في المنجبات ثلاثا وفي البيوتات ثلاثة ، فعدوا في المنجبات :
(١) فاطمة بنت الخرشب^(١) الأغارية أم الكملة من بني عبس ؛ وهم الربيع الكامل ، وعمارة الوهاب ، وقيس الحفاظ ، وأنس الفوارس بنو زياد بن عبد الله من عبس بن بغيض بن ريث بن غطفان .

(ب) وخبيثة بنت رياح الغزيرية^(٢) ، وهي أم ربيعة الأحوص ، وخالد الأصبح ، ومالك الطيان^(٣) ، وربيعه الجواد بن جعفر بن كلاب بن ربيعة ابن عامر بن صعصعة .

(ج) وماوية بنت عبد مائة بن مالك بن زيد بن عبد الله بن دارم بن عمرو ابن تميم ، وهي أم لقيط ، وحاجب ، وعلقمة ، ومعبد بن زرار بن عدس بن زيد ابن عبد الله بن دارم بن عمرو بن تميم . وكانهم راعوا ما بين بني هاشم وبني أمية ابن عبد شمس من المنافسة ، فلم يعرجوا على من أنجب لهاشم أوبنيه . ولو كنت أنا

(١) الخرشب لقب عمرو بن النضر بن حارثة من بني بغيض بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس عيلان ، والخرشب في اللغة الرجل الشديد الجافي ، والطويل السمين .

(٢) نسبة إلى غني بن أعمار بن سعد بن قيس عيلان ، و (خبيثة) يصحف في أكثر الكتب (حية) ، (حبية) وغير ذلك وكله تحريف خاطئ .

(٣) (الأحوص) من الحوص وهو صفر العينين وضيقهما . و (الأصبح) لقب به خالد لثامه يضاء كانت في مقدمة رأسه ، و (الطيان) لقب به مالك لأنه كان طاووي البطن .

المستول لطمعت في حلم معاوية وحسن سياسته ولطف مداراته ، فاخترت المنجيات نساء عبد المطلب الثلاث ، وهن :

(١) ثقيلة ^(١) بنت جناب بن مالك بن عمرو بن عامر بن زيد مناة التي ولدت لعبد المطلب ابنه العباس وضرارا ^(٢) .

(ب) هالة بنت وهيب بن عبد مناف بن زهرة ، أم : حمزة ، والمقوم ^(٣) ، وحجل ، وصفية ، أولاد عبد المطلب .

(ح) فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم أم (الزبير بن عبد المطلب) وأخويه أبي طالب وعبد الله والد رسول الله ﷺ . فإن قالوا : إنهم لا يدعون لمرأة منجبة حتى تنجب ثلاثة — عددت من نساء عبد المطلب الاثنتين الأخريين ، فإن أبيت الجمع بين ضربتين آثرت بالذكور واحدة منهما أراها أشرف نسباً وأكرم حسباً ، وأعرق أصلاً ، وأنجب ولداً ، ألا وهي السيدة فاطمة المخزومية ، فعندي أنها خير المنجيات اللاتي ولدن ثلاثة (دع عنك بناتها الخمس أخوات هؤلاء السادة الثلاثة ، وهن البيضاء أم حكيم ، وعاتكة ، وبرة ، وأميمة ، وأروى ، لاهضها لحق الجنس اللطيف ولا غمطاً لمنزلة هؤلاء السيدات ، ولكن لأن معاوية إنما يريد من أنجب بنين ، ولأن آثار إخوتهن الثلاثة جد ظاهرة واضحة ، وقد

(١) ثقيلة علم منقول من مصنف ثلة : واحدة التل وهو بيض النعام كانوا يملأونه ماء فيدفنونه في المغاور البعيدة من الماء وذلك في الشتاء . فإذا سلكوها في القيط استأثروا البيض وشربوا ما فيها من الماء ، وقال الأزهري : أصل التل التقدم والتهيز للقدوم فلما تقدموا في أمر الماء بأن جعلوه في البيض ودفنوه سمي البيض تلاً — ويصحف بعضهم هذا الاسم بناءً مثلثة (ثقيلة) وهو خطأ .

(٢) توفي ضرار حدثنا فيل الإسلام .

(٣) كان حجل بن عبد المطلب بلقب القيداق لندة خيرة وكثرة ماله ، ومات ولم يعقب ، وكذلك أخوه المقوم لم يعقب إلا بنتاً اسمها هند . (صفية) بنت عبد المطلب لم يسم من عاتقه صلى الله عليه وسلم على الأرجح سواها ، واختلف في أختها عاتكة وأروى . (وصفية) هي أم الزبير بن العوام ، وقتل زوجها العوام بن خويلد في حرب الفجار قبل البعثة وعاشت صفية كثيراً ، وتوفيت سنة عشرين في خلافة عمر بن الخطاب .

أنجبوا من سلالتهم وذرياتهم من استمر شرفهم وفضلهم مدى الأزمان حتى اليوم) .

فلئن كان هؤلاء المنجيات اللاتي عدهن جلساء معاوية قد ولدن رجالا لحفظ التاريخ لهم كثيرا من أعمال البطولة والشجاعة والكرم، وخلدت صحائفهم ذكرهم بما كان من عظيم آثارهم في الجاهلية - إن لبي فاطمة بنت عمرو الخزومية أن يفخروا بمثل ذلك وأعظم منه، بل لقد أربوا عليهم بكثير من المحاسن والمآثر، وفاقوهم بشتى الفضائل والمناقب، وأنجبوا ذرية مباركة طيبة طابوا أصولا وفروعاً، وكرموا أعماماً وأخوالاً، وأتوا من جلائل الأعمال وعظيم الفعال، بما كان أثره أعظم وأحسن، وعاقبته أجل وأشرف من أعمال بني المنجيات الآخرين، بل إن لهم لأبين الأثر وأظهر الصنع في نهضة الأمة العربية وعلو شأنها ورفعة قدرها، وإن لهم للبلاء الحسن والسعي الحميد المشكور في هداية الناس إلى دين الله ونصرتة وانتشاره، وفي رقي لغته وعلومها وآدابها حتى كانت الأمة العربية بحق خير أمة أخرجت للناس؛ تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله. ولا غرو في ذلك فكل مفكر منصف في الناس يقول:

قريش خيار بني آدم وخير قریش بنو هاشم

وخير بني هاشم أحمد رسول الإله إلى العالم

ولسنا الآن بصدد التفصيل لحياة كل واحد من بني عبد المطلب وبناته، فإن لذلك مجالا فسيحا لا تتسع له هذه الصحيفة (وسنعنى بذلك إن شاء الله في رسالة خاصة جامعة، ونخص من بينهم أبا طالب برسالة أخرى مستقلة نسهب القول فيها ونشرح حياته وماله من أثر في الدين واللغة والأدب: نثره ونظمه وعسى أن يكون ذلك قريبا بعونه تعالى) .

ولما يعنينا الآن القول في - الزبير بن عبد المطلب - فقد كان هو وشقيقه أبوطالب أشعر بني عبد المطلب، بل كانا في عصرهما أشعر بني هاشم على

قلة الشعراء فيهم^(١) وخاصة قبل الإسلام .

كان الزبير بن عبد المطلب أسن أشقائه الثلاثة — وأصغرهم عبيد الله والد رسول الله ﷺ — اختضر شابا عن نحو ٢٥ سنة وابنه محمد ﷺ جنين في بطن أمه، وقيل بل كان طفلا في المهد حديث الولادة ويستدل قائل ذلك برجز منسوب إلى عبد المطلب يوصي ابنه عبد مناف وأبا طالب، بمحمد بن أخيه عبد الله وقد حضرت عبد المطلب الوفاة، هو :

أوصيك يا عبد مناف بعدي بموتم بعد أيه فرد
مات أبوه وهو حلف المهد

فرحة الله على ذلك الشباب النضر الذي صوح به البلى، وتلك الحداثة الغضة التي أزوى بهجتها بطن الثرى .

وثلاثتهم — بل بنو عبد المطلب جميعا — كانوا يزينهم مع شرف البيت وأصالة محتده : جمال الوجوه وصباحتها، وكرم الأيدي وسماحتها، وحسن الأخلاق وسماحتها، وكلهم كان في زمنه عديم النظير منقطع القرين، إذ ارتفعت راية لمجد تلقاها باليمن، له من طيب العرق وكرم المنصب ما يعطر به بأنف شامخ، وتتناول يداه به الثريا قاعدا غير قائم .

نمته العرائن من هاشم إلى النسب الأوضح^(٢)

(١) ومن شعراء بني هاشم من ذرية عبد المطلب أبو سفيان بن الحرث بن عبد المطلب، وقال أبو عبد الله ابن سلام الجعي في طبقات الشعراء : « وأشمار قرين أشمار فيها لين تشكل بعض الاشكال » ثم قال : « والذي قلل شعر قرين أنه لم يكن بينهم ثائرة ولم يحاربوا » — وقال أيضا « وكان أبو طالب شاعرا جيد الكلام . وأجمع الناس على أن الزبير بن عبد المطلب شاعر والحاصل من شعره قليل » .

(٢) (العرائن) جمع عرين وهو السيد الشريف، والعرين في الأصل الأنف أو ماصب من عظمه و (النبع) شجر من أشجار الجبال صلب الودود وزينة ثقيلة في اليد، كانوا يتخذون منه أجود القعى ويصنعون من أغصانه أحسن السهام . و (والابطاح) والبطاح في الأصل كل مسبل فيه حصا دقيقة وبطاح مكة شرب واسع بين أخشيها (الأخشابان جلان هما أبو قيس وقبيصة، وأبو قيس هو الجبل المشرف على الصفا — وكانت قرين قسمين : قرين البطاح وهم النازلون بين أخشي مكة . وقرين الظواهر الذين ينزلون خارج هذا الشعب، وأكرمهما وأعلاهما شرقا قرين البهاج .

إلى تبة فرعها في السماء ومغرسها في ذرا الأبطح

ولد الزبير بن عبد المطلب حوالي سنة ٥٣٥ م (فهو أسن من ابن أخيه محمد ﷺ بنحو ٣٥ سنة) ونشأ كباخوته أبناء عبد المطلب بين بطاح مكة وشعابها ينعمون بجاه أبيهم شيخ البطحاء وسيد الوادي غير مدافع، وينمون إلى ذروة المجد والعزم قرش، وربى في كنف والده، وعزة قومه وشرف أصله من أسرتي أبيه وأمه، فكان منذ حداثة فتى رماه الله بالخير ناشئاً فأحسن لبسه، وزان به نفسه، وشب كما كان يشب أبناء البيوتات الراقية من فتيان قرش وشبانها أولى الفتوة والثروة، وذوى المروءة والقرة والنخوة، والموصوفين بالحماسة والكرم والميل إلى الصبوة، فنهز في شبابه معهم بدلوهم، وأسام سرح صباه حيث أسام^(١) بنو الكرام منهم، بل كان هو قدوتهم وأسوتهم، وموضع التجلة والإكبار بينهم، إذ كان معروفاً فيهم أنه الذي جمع المجد من قطريه، وضم من السودد طرفه، ومن استوفى شرف الأرومة بكرم الأبوة والأمومة، ومجد الخنولة والعمومة. والذي أتاه الله مع عز المحتد والنصاب مزينة البلاغة ورقى الآداب، فكان مع شهامته وشده وشرف نفسه وعلو همته من أمتع الاخوان مجلساً وأطيبهم عشرة، عذب الشئائل، رقيق الطبع، كريم المجالسة، لمن جالسه حسن الخلق لمن جاوره:

كهل الأناة فتى السراة إذا غدا للروع كان القشعم الخطيرفا^(٢)

وتقدم فتيان مكة إلى ما كان في أيامهم موضع فخارهم، وسبق إلى ما كان ميدان فتوتهم وكرمهم، فتمدح بما كانوا يتمدحون به من معاقرة الراح، ومن وصف الندمان والاعتباق والاصطباح، وانتمخر بما لاغيزة فيه من شرف

(١) نهز بالدلو في البئر إذا ضرب بها في الماء: حركها لتمتلي. والسرح الايل والانعام يندى بها ويراح في المرعى، و(سامت) رعت، وأسامها أرهاها.

(٢) القشعم في الأصل الممن من الرجال والنسور، أو الضخم الممن منها ويطلق على الأسد لشده وخطامته، و(القطريق) السيد الشريف والسخي السرى والشاب الكريم والفق الجليل الظريف.

آبائه الصيد الكرام ، ومواقفه المحموده في ميادين الحروب والخصام ، حريصام
ذلك على العزة القرشية والمكانة الرفيعة الهاشمية ، مقتصدا في طهوه العف البرى ،
يربأ بنفسه وبيته أن يجارى بعض من عاصرهم من ذوى الخلاعة الماجنة ؛ فلم
يكن مثل امرئ القيس أو طرفة بن العبد مثلاً ، بل ولا مثل تربيه أبى الطمجان
القينى وإن كان نديماً له ، ولكنه كان ربما أجاب داعى الشباب والصبا :

فراح ثقیل الحلم شهماً مرزاً وباكر مملوءاً من الراح مترعاً ^(١)
فمن شعره فى ذلك الطور من حياته قوله يصف زق خمر ويمدح نديماً له
ويثنى عليه :

وأسحِمَ من راح العراق مملأً يحيط عليه الخيش جلد مرائره ^(٢)

(١) المرزأ هو الرجل الكريم الذى يصيب الناس خيره وينالون منه كثيراً ، وأترع الاناء ملاء
حتى فاض .

(٢) (الأسحِم) زق اخر سمي به لسواده ، من السحمة والسحم والسحام أى السواد (الخيش)
نسيج معروف ذو خيوط غلاظ يتخذ من مشاقه الكتان ومن أردته — المشانة ماسقط من نحو الشعر
والكتان والقطن عند مشطه أو مشقه أى تريحه وتخليصه وهى المشاطة أيضاً ، و (جلد) شديد قوى
متين (مرائر) جمع مريرة وهى الحبال المفتولة على أكثر من طاق ومالطف من الحبال وطال واشتد
قله — يريد الزبير أن هذا الزق كان كما جاء من عند بائمة ، فهو بقلاته وما يحيط به ويشد عليه لحفظه ،
فكان الزبير وتديمه أول من فتح أغلاق عاتمه واقض عذرتيه وأراق قاتى دمه — وكانوا يطلون زقاق
لخر وجرارها بالقار أو الطين ، وذلك لحفظه ولئلا يرشح بما فيه :

١ — قال القطامى [عمير بن شبيب التميمى من شعراء العصر الأموى] يصف جرار خمر .

استودعها روايد مقيرة دكن الظواهر قد يرسن بالطين

مكالخات لحر الشمس قائمة كأنهن نيط فى ثيابين

[روايد] جمع رايود وهو الدن الكبير ، أو إناء من خزف مستطيل يطلى داخله بالقار ، وهو
لفظ معرب . [مقيرة] مدهونة بالقار أو التير و [دكن] جمع أدكن من الدكة وهو لون يقرب إلى
السواد و [الثيابين] جمع ثياب وهو سراويل صغير يستر العورة ، [يرسن] يريد سترن وغطين من
الطين بما يشبه البرنس ، وهو كل ثوب رأسه منه ملتزق به .

ب — وقال ليد بن ربيعة من معلقته .

أغلى السباء بكل أدكن عاتق أوجوة قدحت وفض ختامها

صبحت به طلقا يراح إلى الندى إذا ما انتشى لم يجتصمه معاقره^(١)

بني زقا قد صلح وجاد في لونه ورائحته لنتحه . وأغلى النوى اشتراه غاليا ، وبأ الخسر اشتراها كاستبأها ، ولا يقال ذلك إلا في الخمر خاصة . وراح عتيق و [عاتق] جيدة قديمة لم يفض أحد ختامها أو حبست زمانا في ظرفها ، و [الماتق] أيضا الزرق الواسع الجيد . و [الجونة] الحايية السوداء . و [قدحت] غرفت . وقدح القدر إذا غرف مائيا . وقدح ختام الحايية إذا فضه .

ج — وقال الأخطل :

أناخوا فجروا شاصيات كأنها رجال من السودان لم يتسربلوا
[الشاصيات] جمع شاصية وهي الزقاق من شعى [كرى] وشصا [كدسا] إذا انتفخ .
د — وقاله الأخطل أيضا .

كنت ثلاثة أحوال بطيئتها حتى إذا صرحت من بدر هدار
آلت إلى النصف من كفلاء أنزعها علج ولثمها بالجفن والغار
لها ودامان نسج العنكبوت وقد حفت بآخر من ليف ومن قار

[كت] جمع كيت وهو الأسود . وجمع على [فعل] لثوم واحد له على وزن [أفعل] وإن لم يلفظ به لأن الألوان يثلب فيها هذا البناء ، والكيت اسم للخمر التي فيها سواد وحررة ، وهو الأصل صفة غلبت عليها الاسمية . والاسم من الكيت الكيبة لون بين السواد والحررة . [صرحت] الخمر إذا تكشف زبدها وانجلي عنها غلصت . قال الأعشى .

كيتا تكشف عن حررة إذا صرحت بدد إزباد

(الكلفاء) التي اشتدت حررتها حتى تضرب إلى السواد ، من الكلف لون بين السواد والحررة وهو الكلفة أيضا فهو أكلف ؛ والكلفاء أيضا من أسماء الخمر ، وأنزعها ملاءها حتى فاضت ، (الجفن) شجر طيب الريح ، وكذا الغار ، (ولثمها) يريد شدوها وغطاها كأنه جعل لها لثاما ، ولثم الابريق ولثمها إذا شد القدم — الداد — على بعض رأسه وترك بعضه للنفس — وصدر البيت الثالث كناية عن قدم المهد بالزق .

(١) (صبحه) جاءه صباحا ، وسقاه صبوحا ، وراح إلى النوى يراح وارتاح إليه إذا نشط واهتزله وسربه — وبروى عجز البيت (لم يحتمره) أى لم يجده حصيرا أو حصوا أى بخيلا ضيق الصدر ، والحضور أيضا البرم وهو من لا بدخل مع القوم في الميسر ولا يخرج معهم فيه شيئا ، والحضور الميوب المحجم عن النوى .

* — وهذه المعاني يفسر بيت الأخطل من القصيدة التي منها الآيات السالفة .

وشارب مريح بالكأس نادمني لا بالحصور ولا فيها بسوار

ضعيف بجنب الكاس قبض بنانه كليل على جلد النديم أظافره^(١)

هذا وقد تقدم وفاة والده صلى الله عليه وسلم عبدالله، شقيق الزبير حوالى سنة ٥٧١هـ^(٢) وكان من سعد حليلة بنت أبي ذؤيب السعدية^(٣) أن شرفت بإرضاعه وأن كانت له أما، وكانت وسيطة فى بنى سعد كريمة من كرائم قومها، ولبت صلى الله عليه وسلم مقبلا عندها حتى بلغت سنة المباركة خمس سنوات فعادت به إلى مكة فكان مع أمه آمنة بنت وهب^(٤) وجده عبد المطلب، نحو عام واحد، ثم أخذته أمه

(الدار) الذى تصور الخمر برأيه سرىما والسورة أيضا الوثبة و (مربع بالكاس) أى يعطى فيها ربحا، وفى معنى يبنى الزبير والاختلال قول الآخر.

إذا صدمتى الكأس أبديت محاسنى ولم يبخش تدمانى أذى ولا يغلى
ولست بفحاش عليه وإن يسى وما شكل من أذى تدماء من شكل

(١) صدر البيت كناية عن الرقة واللفظ والكرم والجود، وعن سرعة الشرب وعدم حبس الكاس فى اليد طويلا، وعجزة كناية كذلك عن حسن الخلق والرقة — وعن حسن ملاطفة النديم ورقة معاملته ولطف مداعبته ومزاحه.

(٢) كانت وفاته بالمدينة عند أخواله (أخوال أبيه) بنى النجار وكان قد ذهب ليمتار أهله تمر « وذلك فى زمن كسرى أنوشروان ملك الفرس العادل الذى كان حكمه (من سنة ٥٢٩ — ٥٧٩ م) »
(٣) حليلة بنت أبي ذؤيب عبد الله بن الحرث بن شجنة بن جابر بن رزام بن ناضرة بن فضة « تصغير فضاء وهى التواة » بن نصر بن سعد بن بكر بن هوازن. وراى حليلة ابنها محمدا بعد ذلك مرتين إحداها بعد تزوجه خديجة رضى الله عنها جاءت تشكو إليه السنة وأن قومها قد أصابهم الجدب فكلّم لها خديجة فأعطتها عشرين رأسا من غنم وبكرات. والمرة الثانية يوم حنين — وزوج حليلة أبو العباس من الرضاعة هو الحرث بن عبد العزى من بنى سعد بن بكر بن هوازن أيضا أدرك الإسلام فأسلم وحن إسلامه. وكذا أبنته الشيماء بنت الحرث السعدية.

(٤) أمة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى. توفيت بالأنبار موضع بين مكة والمدينة وهو إلى المدينة أقرب — وأرضعت صلى الله عليه وسلم قبل حليلة « نوية » جارية عمه أبي لهب. وكان الرسول يعرف لها ذلك وإصلاها من المدينة فلما فتح الله مكة سأل عنها وعن ابنها مسروح فأخبر أنها مائتا. وسأل عن قرابتها فلم يجد أحدا منهم حيا.

لتزيره أخوال جده عبد المطلب بالمدينة بنى عدى بن النجار^(١) فماتت وهى عائدة به إلى مكة (وكذا كان شأن زوجها عبد الله من قبل، فكانت ما كانا التمازج روحيهما واتحاد قلبيهما على موعد) ولم تتجاوز سنه حينئذ عاش ثمانين سنة، فكان بعد أن استأثر الله بأبويه مع جده عبد المطلب موضع حبه وبره، ومكان عطفه وحنانه، وهو فى كل نشأته وجميع أدوار حياته قد صنعه الله على عينه، وتولى حياته ورعايته، وأدبه فأحسن تأديبه وتربيته، وأنبتته نباتا حسنا، ونشأه تنشئة صالحة مباركة، وكان فى صباه يتردد على منازل أعمامه وخاصة منزلى عميه الشقيقين: الزبير وأبى طالب، فكان يلاقى من كليهما الأب الروف الرحيم، ومن زوجيهما الأم العطوف الرءوم، ومن أولادهما الأخوة الكرام البررة والأصدقاء المخلصين الأوفياء، وما من هؤلاء جميعا إلا من يكن لمحمد بن عبد الله الحب الخالص والمودة الرحيمة ولسان حاله ينشده

ما أملك اغتالت المنايا كل فؤاد عليك أم

واتفق فى أثناء ذلك أن دخل يوما على عمه الزبير وهو صبي كامل الخلق بهى الطلعة، مشرق الوجه، وضاء الحياء، فلاقاه عمه ووجهه يفيض بشرا ويتهلل سرورا، وانشرح صدره لهذا الابن النجيب الذى خلفه أخوه عبد الله أصغر أشقائه، فضمه وهو يبسم إليه، ومسح بيد العطف والرحمة عليه، وأجلسه فى حجره وقال هذا الرجز الذى كان فيه صادق الفراسة ذا نظر بعيد، وفكر سديد، وذهن ثاقب ورأى صائب، بل كان فيه نقابا^(٢) يحدث عن الغائب، قال:

محمد بن عبد المطلب عشت بعيش أنعم ودولة ومغنم

(١) أم عبد المطلب هى - لمى بنت عمرو بن زيد بن لبيد بن خدش بن عامر بن غنم بن عدى بن النجار [تيم الله] بن ثعلبة بن عمرو بن الحزرج. وهى أيضا أم أخته رقية بنت هاشم.

(٢) النقاب هو الذى العالم بالأموال الخبير بالأشياء الكثیر البحت عنها والتعقب عليها، شديد الفطنة نافذ الرأى.

في فرع عزّ أسنم مكرم معظم دام لجيش الأزل^(١)
ثم دخل عليه أخوه لآبيه العباس بن عبد المطلب وهو غلام في نحو الثامنة
من عمره فأقعدته في حجره وقال :

إن أخي العباس عف ذو كرم فيه عن العوراء إن قلت صمم
يرتاح للمجد ويوفى بالذمم وينحر الكوماء في اليوم الشم^(٢)

أكرم بأعراقك من خال وعم

وكان العباس أسن من رسول الله ﷺ بنحو ثلاث سنين ، ثم دخل عليه
أخوه ضرار بن عبد المطلب وهو أصغر من العباس وشقيقه فقال :

ظني بمياس ضرار خير ظن أن يشتري الحمد ويغلي بالثمن
ينحر للأضياف ربات السمن ويضرب الكباش إذا البأس أرجح^(٣)

ثم دخلت عليه ابنته أم الحكم وهي صبية صغيرة فقال :

يا حبذا أم الحكم كأنها ريم أحم

يا بعلمها ماذا يشم ساهم فيها فسهم^(٤)

(١) عديم ، زاد الميم في عبد التعظيم كما قد تزداد في ابن لذلك فيقال انتم ، « أسنم » رفيع عال -
وقال لا ألقاه لجيش الليال أي آخرها أو الدهر كله . والأزل والأزلم الدهر سمي به . لأن البلايا
مبنوطة به والمنايا تابعة له ، وهو في الأصل اسم للبير أو ذكر الشاة يقطع طرف أذنه وتترك له زلة أو
زمنة تبقى معلقة . وكانوا إنما يفعلون ذلك بكرام الأبل ، ومؤنثه زلاء . وزعموا ويقال للوعل (على الأصل) .
وللدهر الشديد الكثير البلايا (على المجاز) . الأزل المجزع . ووصف الدهر بالمجزع لأنه باق على حاله
لا يتغير مع طوله فهو أبداً مجزع لا ين . وقال الأخطل يخاطب بشر بن مروان بن الحكم .

يا بشر لو لم أكن منكم بمنزلة ألقى على يديه الأزل المجزع

وقال أودى به الأزل المجزع أي أهلكه الدهر ويقال ذلك لما ولى وفات وبس منه .
وكان بشر بن مروان عاملاً لآخيه عبد الملك على العراق وتوفي سنة ٧٤ رحمه الله .

(٢) « الكوماء » الناقة العظيمة السنام . والشيم البرد وشيم الماء . « كفرج » برد .

(٣) مياس لقب ضرار والمياس الأسد المتيختر الذي يختال زهوا لثقة أكثرائه بمن يلقاه وكباش
القوم ذعبيهم وقائهم ، وأرجح : قتل واشتد .

(٤) الريم الظبي ولد التزال والأحمر الشديد سواد المقلتين ، وساهم : راض . وسهم : غلب وفاز -

وبروى : يا بعلمها حزت الكرم .

ثم دخلت عليه جارية يقال لها أم مغيث فقالت له : مدحت ولذلك وبني أخيك وإخوتك ولم تمدح ابني مغيثا فقال : على به ، فجاءت به ، فقال : وإن ظني بمغيث إن **كبر** أن يسرق الحج إذا الحج كثر وينهب الأزواد من بر وتمر ويوقر الأعيار من قرف الشجر ويأمر العبد بليل يعتذر ميراث شيخ عاش دهر اغير حر^(١)

ولينظر القارئ تلك الأراجيز التي ارتجلها الزبير ارتجالا وليعجب بدعائه الجادة وبجده المازح وليستجل منها عواطفه الشريفة الرقيقة ، ويستشف منها أخوته العاطفة الشفيقة ، وأبوته الحانية الرقيقة ، وسيادته المتواضعة الضاحكة غير العابسة ، ذات الفكاهة الحلوة والنكتة المستمحلة ، تطيب نفس المولى منها بحسن الحديث ولطف المؤانسة ، ولقد اختص ابن الجارية مغيثا بأطول أراجيزه حتى يرضى أمه ، وقد وصف ابنها بما نعت به وما تفرسه فيه مما هو أهل له . ومن هذه الأراجيز التي جاءت عفواً الخاطر ووحى البديهة وإملاء القرينة تدرف بديته الحاضرة الموانية ، وقريحته الوقادة الذكية ، وخاطره السريع الرائب ، وبلاغته التي لا تكلف فيها ولا إجهاد طبع ، وتبدو خفة روحه العذبة اللعوب ، ونفسه الكريمة المرحاة الطروب .

والآن ودع الزبير بن عبد المطلب سنه الأربعين وقد بلغ أشده واستوى ، وصدف عن اللهو والصبا ، ونهى النفس عن الهوى وإن كان في شبابه لعف الإزار ، شريف النفس ، ما عرفت العرب عنه ريبة وما علم أحد عليه من سوء .

(٤) أوفر الأعيار أى حملها . الأوقار جمع وقر وهو الخمر . وقرف الشجر قشره . وكانوا يأكلونه زمن القحط والجذب . و « يعتذر » هنا بمعنى يصنع عذيرة وهى طعام من أطعمة الأعراب ويزوى « يعتذر » أى يمدح حوضه بالطين حتى لا يشرب منه أحد . ومنه اسم « مادر » الذى يضرب به المثل فى البخل . وهو رجل من بنى هلال بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن . وفيه قيل : لقد جلت خزيا هلال بن عامر بنى عامر طرا بسلة مادر فأف لكم لا تذكروا الفخر بعدها بنى عامر أتم شرار المعاشر فيجوز أن يكون [يعتذر] هنا من عذر الشيء لطخه بالعذرة أى صنع مادر .

لا تألف الفحشاء برديه ولا يسرى إليه مع الظلام المأثم
ولما دخل في سن الكهولة زمان العقل والحكمة وإبان الفكر والروية
والتجربة - كان شعره حكيمًا جادا يلقى به على الناس النصيحة والعبرة، ويصوغ
فيه الحكمة والموعظة الحسنة. ثم كان الزبير في كل أطوار حياته الشجاع
الصنديد الذي لا يثنى عن قرنه، والفارس الجريء الذي لا يكهم^(١) سيفه.
رفيق بداء الحرب، طب بصعبيها إذا شت رأى القوم فهو جميع
وهو الحى الأنف الذي يعز جاره، والآبى النفس الذي لا يهضم حقه ولا
يغمر جانبه، يحمى ذماره وينصر مولاه، ويذود عنه بلسانه وسيفه ويحفظه
ويرعاه، ويتغلى بظل جناحيه من أوى إليه والتجأ إلى حماه :

عطوف على المولى ثقل على العدا أصم عن العوراء وهو سميع
وكانت قریش إذا سافرت فصارت على العقبة لم يتجاوزها أحد حتى تجوز
قریش، فخرج حرب بن أمية بن عبد شمس ليلة، فلما صار على العقبة لقيه رجل
تسمى من بنى حاجب بن زرارة، فتنحى حرب وقال: أنا حرب بن أمية، فتنحى التيمي
وقال: أنا ابن حاجب بن زرارة، فجاز العقبة، فقال حرب: لاها الله^(٢)

(١) السيف الكهيم والكهيم هو الكايل لا يؤثر في الضربة . وكهيمته الشدائد إذا جبهت عن
الاقدام ونكسته ، ورجل كهيم وكهيم أى عبي ثقیل بطى لا غناء عنده ولا خير فيه .

(٢) قد يقسم « بها » فيقال: لاها الله ما فعلت (أبدلت الماء من الوار) ويجوز حذف ألفها فيقال
ماقه ما كذبت — و « الثانية » في الأصل كل عقبة في الجبل مسلوكة (والعقبة الجبل الطويل يعرض
للطريق فيأخذ فيه) و « العقبة » هنا بين مكة ومنى بينها وبين مكة نحو ميلين ومنها ترمى جمره العقبة —
وحاجب بن زرارة تقدم ذكره وهو جاملى قديم وابنه عطار بن حاجب كان سيدا في قومه (ووقد على
رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة تسع في طائفة من وجوه بنى غنيم فأسلموا) ومحمد بن عمير بن عطار
كان كاتباً لعبد الملك بن بشر بن مروان (وكان معاصراً للفرزدق وجريراً وكان يتعصب للفرزدق لأنه
تيمى منهم وينصره ويبدل من ماله وجاهه لتفضيله والدود عنه) ومن ولده أبو عمرو أحمد بن عبد الجبار
ابن محمد بن عمير بن عطار كان عدائاً ثقة نبیلاً نشأ بالكوفة وحدث بغداد) وكان مولده سنة ١٧٧

لا تدخل مكة بعدها وأنا حي ، فمكث التيمي حيناً لا يدخل مكة وكان متجراً^(١) بها ، فاستشار بمن يستجير من حرب ، فأشير عليه بعبد المطلب أو بابنه الزبير ، فركب ناقته وسار إلى مكة ليلاً ، فدخلها وأناخ ناقته بباب الزبير بن عبد المطلب فرغت الناقة ، فخرج إليه الزبير وهو يقول : أمستجير فمتجار ، أم طالب قرى فتقرى ؟ فقال التيمي :

لأقوت حرباً بالثنية مقبلاً والليل أبليج نوره للشاري
فعلاً بصوت واكتنى ليروعني ودعابد عوة معلن وشعار^(٢)
فتركته خلفي وجزت أمامه وكذاك كنت أكون في الأسفار
فمضى يهدني ويمنع مكة أن لا أحل بها بدار قرار
فتركته كالكلب ينبج وحده وأتيت قرم مكارم ونغار
ليثاً هزبراً يستجار بقربه رحب المباءة مكرماً للجار^(٣)
وحلفت بالبيت العتيق وحجه وبزمزم والحجر والانتار
إن الزبير لما نعى بمهند صافي الحديد صارم بتار
فأجاره الزبير على حرب بن أمية ، فلما رأى حرب التيمي بمكة أراد طرده ، فعز على الزبير أن يعتدي حرب على من أجاره وهو يعرف أن ظلم الجار إذلال المجير ، فأهانته الزبير مع أنه كان صاحب أبيه ونديمه ، وخرج بكره عن سجيته ، وكأنه كان يقول لحرب بن أمية :

قد كنت تعرف مني في الرضار جلاً حلو المذاقة فاعرفني لدى الغضب
وأرغمه على ترك التيمي والأعراض عنه وعدم التعرض له . وكان مع

(١) أعلن مافي نفسه أظهره ويستعمل كثيراً في المجاهرة بالعداء والجهر بقول السوء ، والشعار العلامة

في الحرب وغيرها

(٢) القمر السيد المعظم المهيّب ، وهو في الأصل الفحل من الأبل لابهان ، والمباءة المنزل

و « رحب المباءة » كناية عن الكرم والسعة .

الزبير في ذلك اليوم أخوه الغيداق ، ولولا أن حرب بن أمية لاذ بأبيهما عبد المطلب وقصده في داره مستجيرا به ما سلم منهما ولنالهما منهما أذى .

ولما بلغ رسول الله ﷺ خمس عشرة سنة هاجت حرب الفجار المشهورة

بين قريش ومن معها من كنانة وبين قيس عيلان (ولم يكن لقريش في أولها مدخل ثم تحققت بها) وسميت الفجار بما استحل هذا من الحيان قيس وكنانة فيه من المحارم بينهم فقد أحلوا الشهر الحرام (ذا القعدة) وقاتلوا فيه فقجروا - وكان الزبير بن عبد المطلب رئيس بني هاشم وبني المطلب بن عبد مناف في هذه الحروب وأبلى فيها بلاء حسنا ، وكانت حرب الفجار في أربعة أعوام متتاليات من نحو سنة ٥٨٦ - سنة ٥٩٠ م ، ثم تداعوا بعدها للصلح ورجعوا للسلم على أن يتعاهدوا ويتواثقوا ، فاصطلحوا وتراضوا (١) .

والزبير هو أول من تكلم في حلف الفضول ودعا إليه ، وذلك بعد حرب الفجار بنحو أربعة أشهر ، وسببه أن العرب لشدة تعظيمها الحرم كانوا يؤمنون

(١) وشهد صلى الله عليه وسلم أكثر أيام الفجار مع عمه الزبير ، وفي ذلك يقول :

شهدت حرب الفجار وأنا غلام فكنت أنبل على عموقي

(أى يناولهم النبل ويرد عنهم نبل عدوم إذا رموم بها) وكان صلى الله عليه وسلم لا يصير مع عمه في فئة الا انهزم من محاذيها ويقال إنه لم يشهد الفجار من بني هاشم سوى الزبير بن عبد المطلب ، وأثبت كثير من المؤرخين حضور أبي طالب مع ابن أخيه محمد صلى الله عليه وسلم في بعض هذه الأيام ، وقال في الامثاني : وزعم قوم من قريش أن أبا طالب وحزرة والعباسي بنى عبد المطلب شهدوا هذه الحروب ولم يرو ذلك أهل العلم بأخبار العرب اهد - وسئل صلى الله عليه وسلم عن مشهده يومئذ فقال ما سرتني أني لم أشهده أنهم تعدوا على قومي (وذلك أن بني عامر بن صعصعة طالبوا أهل الحرم من قريش وكنانة بجزيرة غريم وأتوهم الى حرمهم يلزمونهم ذنب سواهم فدافعوا عن أموالهم وذرياتهم وعن أنفسهم . والفاجر لا يكون المسعى عليه ولذلك أشهد الله نبيه ذلك الموقف وبه نصره وإن لم يقاتل مع أعمامه بل إنما كان يابل عليهم وقد كان بلغ من القتال فلم يقاتل لأنها كانت حرب تجار وكانوا أيضا كلهم كفارا ولم ياذن الله تعالى للمؤمن أن يقاتل إلا لتكون كلمة الله هي العليا - وجرح في هذه الحروب حرب بن أمية ثم لم يلبث بعدها طويلا حتى مات .

ساكنه واللاجئ إليه محسنا أو مسينا حتى أدى ذلك إلى عدوان بعض الطغاة من صناديد مكة على كثير من كان يفد إليها حاجا أو معتمرا أو تاجرا، فلما تكررت هذه الحوادث اهتم لها الزبير وقال ما لهذا مترك، وحلف ليعقدن حلفا بينه وبين بطون من قريش يمنعون به القوى من ظلم الضعيف والقاطن من هضم الغريب الوافد، وبما قاله في ذلك :

حللت لتعقدن حلفا عليهم وإن كنا جميعا أهل دار
نسميه الفضول إذا عقدنا يعز به الغريب لدى الجوار
ويعلم من حوالى البيت أنا أباة الضيم نمنع كل عار
فاستجاب له العقلاء من قريش بعد أن فكروا في الأمر وأجالوا الرأي
فيما بينهم ورأوا أنه إن لم يوضع حد لحرمة من بالحرم خيف أن تنتهك حرمة،
ويجتري عليه من ينتهز فرصة الأمن فيه من ذوى الترات الحاقدة والآراء
الطائشة الجاححة، ومن يعتد في الباطل بجأه وقوته، ويعتز في غير حق بنعرتة
وعصيته، ومن يزين له الغرور والصلف سوء عمله، ويجري في البغي والضلال
رسنه وقد يكون ذلك سببا في الاعتداء على سكان البلد الحرام، وأن ترتكب
فيه المظالم والآثام ولا يطمئن في ربوعه الأمن والسلام، فاجتمعت هاشم
وزهرة وتيم بن مرة وتعاقدوا وتحالفوا على نصرة المظلوم والأخذ على يد
الظالم وإنصاف القوى من الضعيف، وأقسموا بالله جهد أيمانهم لىكونن يدا
واحدة مع المظلوم على من بغى عليه فكان في الحقيقة حلفا اجتماعيا سياسيا
دينيا، بل كان أكرم حلف سمع به وأشرفه في العرب وأحسن عقد عقده
قريش في قديمها وحديثها قبل الإسلام. وفيه يقول الزبير بن عبد المطلب
أيضا :

إن الفضول تحالفوا وتعاقدوا أن لا يقيم بطن مكة ظالم
أمر عليه تعاقدوا وتواثقوا فالجار والمعتز فيهم سالم

ولقد شرف النبي ﷺ اجتماعهم هذا بحضوره وهو شاب ، وأثنى عليه بعد مبعثه ولم يكن يظلم بمكة إلا رجال أقرباء لهم العدد والعارضة ، وحجة القوة الغاشمة الداحضة ، من مثل العاصي بن وائل السهمي وبعض قومه من بني سهم ، ومثل أبي بن خلف الجمحي الذي قتل يوم بدر مشركا .

هذا وكان أبو الطحمان^(١) القيني (حظالة بن الشرق أحد بني القين بن جسر من قضاة) تربا للزبير بن عبد المطلب في الجاهلية وندبها له ، وكان أبو الطحمان شاعرا بليغا وفارسا ضاريا صعلوكا فكان الزبير يقبله على علاته ويحني ثمرات أدبه وبلاغته ، ويشذب من أطراف أخلاقه وعرايته^(٢) ، ويسمع الجيد من شعره ومدائح ، ويسدى إليه كرائم أمواله ونصائحه ، وكان الزبير جوادا سمحا قد بوا بيته في معلم واضح ، لا يخفى على الغادي والرائح يؤم ساحته الفسيحة ومباءته الرحمة من أجذب بهم الجناب ، ونبا بهم المكان وأحزن بهم المنزل ، ويقصده العفاة فيجدون منه رافدا معينا واسع المعروف ، وتعفوه الأضياف فيحتفل لقراهم ، ويكرم وفادتهم ويحسن مشواهم ، فوجد عليه أبو الطحمان مرة . وطال مقامه لديه فاستأذنه في الرجوع إلى أهله وشكا إليه شديد شوقه إليهم فلم يأذن له ، وسأله المقام . فأقام عنده مدة أخرى ، ثم أتاه يوما فأنشده :

الاحنت المرقال واثتب دهبها تَذَكَّرْ أوطانا وأذكر معشري^(٣)
ولو عرفت صرف البيوع لسرها بمكة أن تبتاع حمضا بأذخر^(٤)

(١) أبو الطحمان هذا شاعر مخضرم مقل مجيد وله شعر مطبوع مختار وأدرك الإسلام وأسلم ولكنه لم يكن متين الدين لأنه لم ير النبي صلى الله عليه وسلم ولم يله شرف صحابته ، وعمر طويلا .
(٢) العراة والعرام الشراة والشدة والاذى ، و [عرم] الرجل كنعصر وضرب وكرم وعلم أشد .

(٣) المرقال اسم لئاقة وهو من أرقل إذا أسرع وأب إلى وطنه يؤب واثتب إذا اشتاق ونزع إلى وطنه ، وأب واثتب إذا تها للذهاب وعزم عليه ويجهز

(٤) الحمض مالمح وأمر من النبات ، والأذخر نوع من المشيش الأخضر طيب الرائحة كان يكثر بمكة والبيت كناية عن شدة حنين الناقة إلى الارتحال وتغيير المرعى مع طيبها وجودتها .

أَسْرَكَ لَوْ أَنَا بِجَنَبِي عَنِيْزَةٌ وَحَمَصٌ وَضَمْرَانِ الْجَنَابِ وَصَفَرٌ^(١)
إِذَا شَاءَ رَاعِيَهَا اسْتَقَى مِنْ وَقِيْعَةٍ كَعَيْنِ الْغَرَابِ صَفْوَهَا لَمْ يَكْدُرْ^(٢)

فلما سمع الزبير هذه الآيات عرف شدة حنينه فأذن له أن ينصرف.

وكان مما تنكره قريش وتعاقب عليه أن يهجو بعضها بعضا ، فاتفق أن
عبد الله بن الزبيرى^(٣) السهمي (وكان في الجاهلية قبل إسلامه هجاء جريئا
مغري بأثارة الفتنة) هجا يوما بني قصي بشعر كتبه في أستار الكعبة أو على
باب الندوة ، يقول فيه :

أَلْهَى قَصِيًّا عَنِ الْمَجْدِ الْأَسَاطِيرَ وَمَشِيَّةً مِثْلَ مَا تَمْشِي السِّفَاسِيرُ^(٤)

وَأَكَلَهَا اللَّحْمَ بَحْتًا لَا خَلِيطَ لَهُ وَقَوْلَهَا رَحَلْتُ عَيْرَ أَتَتْ عَيْرَ

فأنكر الناس ذلك وعرفوا أن قائله هو ابن الزبيرى ، فأرسل بنو هاشم
عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف^(٥) إلى بني سهم فقال لهم : إن قومكم

(١) هذه كلها أسماء أما كن يود الشاعر أن يراها بعد طول بعده عنها .

(٢) الوقية المكان الصاب الذي يمسك الماء ، وقررة في جبل أو سهل في متن جحر يستنقع فيها الماء .
فيكون أصفى وأعذب قال ذو الرمة :

وَنَلْنَا سَقَاطًا مِنْ حَدِيثِ كَانَهُ جَنَى النَّجْلِ عَزُوجًا بِمَاءِ الْوَقَانِعِ

(٣) عبد الله بن الزبيرى بن قيس بن عدى بن سعد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن
لؤي بن غالب بن فهر القرشي السهمي كان من أشعر قريش ، وكان قبل إسلامه من أشد الناس على رسول
الله صلى الله عليه وسلم وعلى أصحابه بلسانه ونفسه وكان يناضل عن قريش ويهاجى المسلمين ثم أسلم يوم
الفتح وحسن إسلامه ومدح رسول الله صلى الله عليه وسلم أجاد وصدق فيه [والزبيرى] في اللغة الشكس
السمي الخلق والذليظ الضخم .

(٤) [السفائر] جمع سفير ، وهو حامل البريد الممرع يحمل الاخبار من بلد إلى بلد ، ويطلق
على الخادم والتابع ونحوهما وهو لفظ معرب .

(٥) كان عتبة بن ربيعة في الجاهلية كبير قريش وسيدها والمطاع فيها ، وكان شديد الرأي عاقلا ،
ولكنه لما دعاه الاسلام إلى الله تعالى أنقز رأيه وغوى بغواية قومه حتى قتل هو وأخوه شيبة وابنه الوليد
كافرين يوم بدر — وكان ابنه أبو حذيفة رضي الله عنه من السابقين إلى الإسلام ومن فضلاء الصحابة

قد كرهوا أن يعجلوا عليكم فأرسلوني إليكم في هذا السفينة الذي هجأهم في غير ذنب اجتمروا إليه ، فإن كان ما صنع عن رأيكم فيئس الرأي رأيكم ، وإن كان غير رأيكم فادفعوه إليهم ، فقال القوم : نبرأ إلى الله أن يكون ذلك عن رأينا ، قال عتبة : فادفعوه إذن إليهم ، فقال بعض بني سهم إن شئتم فعلنا على أن من هجانا منكم أسلمتموه إلينا ، فقال عتبة : ما يمنعني أن أقول ما تقول إلا أن الزبير بن عبد المطلب غائب بالطائف (أو باليمن) وقد عرفت أنه سيفرغ لهذا الأمر فيقول ، ولم أكن لأجعل الزبير خطراً (١) لابن الزبير ، فقال قاتل منهم : أيها القوم أدفعوه إليهم ، فلعمري إن لكم مثل الذي عليكم ، فكثرت في ذلك الكلام واللغظ ، فلما رأى العاصي بن وائل (٢) أن الأمر ربما استفحل (وكان في زمنه زعيم بني سهم) دعا برمة فأوثق بها عبد الله بن الزبير ودفعه إلى عتبة ، فأقبل به مربوطاً حتى وافى قومه ، فاستغاث ابن الزبير بن سهم قبيلته فلم يغشوه إبقاء على مودة بني هاشم وغضبا على من تعدى حدود قريش قال منها بلسانه ، فجعل يمدح قصيصاً ويسترضيهم حتى عفوا عنه ، وبما مدحهم به قوله :

كانت قريش بيضة فتفلسقت فالمسح خالصة لعبد مناف (٣)

وقتل شهيدا يوم اليمامة سنة ١٢ عن نحو ٤٥ سنة ، وابنه محمد بن أبي حذيفة كان له شأن بعد أيام عثمان حتى قتل سنة ٣٦ — وشيبة بن عتبة بن ربيعة أسلم يوم الفتح وكان من زهاد الصحابة وتابعيهم وتوفي زمن معاوية — وهند بنت الوليد بن عتبة بن ربيعة كانت من المهاجرات الأول ومن أفضل أباي قريش (١) الخطر المثل في العلو ورفعة القدر ، ولا يكون في الخسيس والشيء الدون — وكذا [خطير] أي مثل وعدل ونظير .

(٢) العاصي بن وائل بن سعيد بن سهم [والد سيدنا عمرو بن العاص] كان من سادات قريش وأعيانها وحكامها ومن ذوى القدر والمكانة فيها ولم يوفق للإسلام كابنه بل كان أحد المشركين يرسل الله صلى الله عليه وسلم المكاشفين له بالدائرة والأذى ، توفي بمكة قبل الهجرة ، وكفى الله رسوله شره .

(٣) وبروى [تفقات] والملح جوهرة البيضة الأصفر ، ومع كل شيء خالصة .

الخالطين فقيرهم بغنيهم والطاعنين لرجلة الإيلاف
والرائشين وليس يوجد رائش والقائلين هلم للأضياف^(١)
عمرو العلا هشم الثريد لقومه قوم بمكة مستنين بحاف^(٢)
فأكرمه بنو عبد المطلب وأطلقه حمزة وكساه، ثم أغرى ابن الزبيري
أناس من قريش بقومه بني سهم وقالوا له اجهم كما أسلوك فقال :
لعمرك ما جاءتني بشكر عشيرتي وإن صالحت إخوانها لا ألومها
فود جناة الشر أن سيوفنا بأيماننا مسلولة لانشيمها
فيقطع ذو الصهر القريب ويتركوا غماغم منها إذ أجد بريهما^(٣)
فان قصيا أهل مجد وثروة وأهل فعال لا يرام قديمها
هم منعوا يوم عكاظ نساءنا كما منع الشول الهجان قرومها^(٤)

(١) راثن الكريم الرجل أطعمه وسقاه وكساه ، وراشه أغانه وقواه وساعده على معاشه وأصلح حاله ونفعه ، وأصله من الریش كأن الفقير الملقى والضعيف طائر مقصوص جناحه فلا يهوى له ، ويقال فلان لا يريش ولا يبرى (أى لا ينفذ ولا يضر .

(٢) عمرو العلا هو هاشم بن عبد مناف ، وأستوا إذا قحطوا وأجدبوا ، وهو من [السنة] وهى القحط قلبوا الواو ناء ليفرقوا بينه وبين قولهم أسنى القوم إذا أقاموا سنة فى موضع ، و [بحاف] جمع أعجف وأعجفا من العجف وهو المزال وذباب السمن لسوء الغذاء من الجهد وشدة الحال — ويروى أن هاشما كان يستعين على إطعام الحاج يقريش فيرفدونه بأموالهم ويعينونه ، ثم جاءت أزمة شديدة فكره أن أن يكلفهم أمر الرقادة فأحتل إلى الشام بجميع ماله واشترى به كمكا وديقما ثم أتى الموسم فهشم ذلك كله وصنع به طعاما للحاج . وتوفى هاشم فى أواخر القرن الخامس الميلادى بمدينة غزة وكان قد خرج إلى الشام تاجرا ولم تتجاوز سنه زهاء ثلاثين سنة .

(٣) شام السيف أعمده ، و [التياغم] جمع غفمة وهى أصوات الابطال فى الوعى عند القتال ، و [البريم] لقب القوم وأخلاقهم ، واللقيف أيضا الجيش لأن فيه أخلاقا من الناس ، أو لا لون شعار القبائل فيه أى راياتهم ذوات الألوان المختلفة .

(٤) يوما عكاظ من أيام حرب النجار ، و [الشول] جمع شائل وهى النافة . التى تشول بذئها للناس ، أو جمع شائلة وهى من الأبل ما أتى على حمارها أو وضعا سبعة أشهر أو ثمانية نجف لبنها وارتفع

وإن كان هيج قدموا فتقدموا وهل يمنع الخزاة إلا حميمها^(١)
 محاشيد للمغزى سراع إلى الندى مرازية غلب رزان حلومها^(٢)
 فلما قدم الزبير بن عبد المطلب من سفره وبلغه ما كان من ابن الزبعرى
 وقومه قال يفخر بقومه ويعرض ببني سهم وبعض قبائل أخرى ويتوعد ابن
 الزبعرى ويهدده إن لم يقلع عن غيه:

قوى بنو عبد مناف إذا أظلم ماحولى بالجنـدل
 لا أسد - لن يسلونى ولا تيم ولا زهرة للنيطل^(٣)
 ولا بنو الحرث إن مر بي يوم من الأيام لا ينجلى
 بأبها الشاتم قوى ولا حق له عندهم أقبل
 إني لهم جار لئن أنت لم تقصر عن الباطل أو تعدل
 وقال فى ذلك أيضا:

ولولا الحبش لم يلبس رجال ثياب أعزة حتى يموتوا^(٤)

ضربها ولم يبق به الا شول أى بقيه من اللبن ، و (الهجان) من الابل البيض الكرام ، الهجان الخبار
 الخالص من كل شئ ، (القروم) جمع قرم وهو الفحل الذى يعنى من الركوب والعمل ويودع للفحلة
 والقرم من الرجال السيد المعظم .

(١) الهيج والمهيجاء الحرب ، والحيم بالحاجة الكلف بها والمهم لها الذى يعنيه شأنها قال الشاعر :

عليها قى لم يجعل النوم همه ولا يدرك الحاجات الا حميمها

(٢) محاشيد جمع محشود وهو من عنده حشد أى جمع من الناس ، و (المقرى) من القرى وهو
 إكرام الضيف ، وما يقدم إليه ، والمرازبة جمع مرزبان وهو الرئيس والفارس الشجاع . (الغلب) جمع
 أغلب وهو الغليظ الرقة يوصف به الاسد أو جمع غلباء وهى القبيلة العزيزة الممتعة .

(٥) الجنـدل موضع . و (النيطل) الدامية والموت والهلاك .

(٦) فى المراجع : ولولا (المحس) ولكن قال ابن سلام إن الصحيح ولولا الحبش وهم الاحباش
 وذلك لانهم أخذوا ثيابهم ومتاعهم حين جاؤا يريدون هدم البيت فرمى الله — و (المحس) لقب
 قريش جمع أحس وهو القوى الشديد الذى صلب وتشدد فى قتاله ودينه .

ثيابهم شمال أو عباء بها دنس كما دنس الحيت^(١)
ولكننا خلقنا إذ خلقنا لنا الخبرات والمسك الفتيت^(٢)
وصبر في المواطن كل يوم إذا خفت من الفزع البيوت
وكأث لو تبين لها كلاما لقالت إني لهم سليت
تبين لنا القذى إن كان فيها رصين الحلم يشربها هبيت^(٣)
ويقطع نخوة الختال عنا رفاق الحد ضربته صموت
بكف مجرب لاعيب فيه إذا لقي الكريمة يستमित
وأفسد بطن مكة بعد أنس قراضية كانهم للصوت^(٤)

ولما حضر عبد المطلب الموت جمع بنيته وأوصاهم رسول الله ﷺ وكان قد أتم الثامنة من عمره ، فاقترع عماء الشقيقان الزبير وعبد المطلب وألقيا أقلامهما^(٥) أيهما يكفل محمد بن عبد الله ، فأصابته القرعة أبا طالب ونال بذلك الحظ الأوفر ، فضمه إليه مسرورا بحوز النجح وفوز القدر ، وكان أبو طالب مشهورا بشدة العطف على أولى رحمه وصلتهم وفيه قيل من قصيدة مدح بها عبد المطلب وبنوه :

(١) الشمال جمع شملة مئزر من صوف أو شعر يوزر به ، (الحيت) وعاء السمن والزيت ونحوهما

(٢) الخبرة ضرب من البرود ثمين ذو نقش ووشى كان يأتي من اليمن .

(٣) الهييت الذهاب العقل والاشحق ويروى البيت :

تربك قذى بها إن كان فيها بعيد النوم نشوتها هبيت

فيكون هيت بمعنى هابت يعني أن نشوتها شيء هبت أي يحرق ويحترقها فيسكن ويناام (والهيت)

أيضا اللين والالترخاء : الضربة الصموت التي تمر في العظام ولا تنبوعن عظام .

(٤) القراضية الصماليك والفقراء جمع قروضوب . ويطلق على اللصوص أيضا . و (الصوت)

جمع أصت وهو اللص في لغة طي . وهم الذين يقولون في نحوه للطس (طست) .

(٥) القلم هنا بمعنى الركن واحد الأركان التي كانوا يستقسمون بها في الجاهلية ، وهي سهام لاريش

عليها :

وعبد مناف ماجد ذو حفيظة وصول لذي القربي رحيم لذي الصبر
ومع هذا كان عليه السلام يزور بيت عمه الزبير كثيرا فيجد من البر والمودة
ومن العطف والخو والشفقة ما جعله يدعو زوج عمه الزبير أمه ، ويدعو
ابنها عبد الله (ابن أمي) .

ومن شعر الزبير (وفي كل بيت منه حكمة ناصحة ونصيحة حكيمة) .

إذا كنت في حاجة مرسلا	فأرسل حكيمًا ولا توصه
وإن باب أمر عليك التوى	فشاور ليبيًا ولا تعصه
ولا تنطق الدهر في مجلس	حديثًا إذا أنت لم تحمصه (١)
ونص الحديث إلى أهله	فإن الوثيقة في نصه (٢)
وذا الحق لا تنتقص حقه	فإن القطيعة في نقصه
وإن ناصح عنك يوما نأى	فلا تنأ عنه ولا تُقصه
وكم من قى عازب عقله	وقد تعجب العين من شخصه
وآخر تحسبه جاهلا	ويا تيك بالامر من فصه (٣)

وقد ينسب بعض الرواة شيئا من هذه الأبيات إلى عبد الله بن معاوية بن
عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، ولكن الثقات ينسبون الأبيات كلها إلى الزبير
ابن عبد المطلب ، ولكنها توجد مفرقة في كثير من كتب الأدب غير مجمعة
ومن نص على أنها للزبير أبو هلال حسن بن عبد الله العسكري المعروف توفي
سنة ٣٩٥ ، في كتابه (جوهرة الأمثال) عند كلامه على المثل (أرسل حكيمًا
ولا توصه) فقال : المثل للزبير بن عبد المطلب في أبيات له معروفة ، وأنى

(١) أحصاه بمعنى عقله وتدير معناه وفكر فيه .

(٢) نص الحديث رفعه وأسندته إلى قائله ، والوثيقة في الأمر أحكامه والاحذ فيه بالثقة ، قال

الكيت يمدح بخلد بن يزيد بن المهلب بن أبي صفرة :

وخلاقتك إلى جملة في حسبي ونعم وثيقة المستوثق

(٣) نص الأمر بفعله أي تخبره وحقيقته وأصله ، أي أنه يفصلك لك ويوضحه ويقفك على حقيقته

وبأني به من موضعه الذي خرج منه .

منها بخمسة أبيات ، ثم قال : فهذا قول الزبير ، وقال غيره : إذا أرسلته ولم
توصه ولم تعرفه في نفسك وما تحتاج إليه في حوائجك وكلفته أن يبلغ مرادك
فيها فقد سمته إلى علم الغيب ، والصحيح أن يقال أرسل حكيمًا وأوصه ، كما
قال الشاعر :

إذا أرسلت في أمر رسولاً فأفهمه وأرسله حكيمًا
وقال الحكماء : (الرسول دليل عقل مرسله) اهـ .

وأقول ليس غرض الزبير ترك الوصية وإفهام الرسول الحاجة وتبليغه
المراد ، بل يريد أنه لحكمته وعقله وحسن اختياره ليس في حاجة أن يوصى
ببذل الجهد في الظفر ولطف الاحتياي وحسن التصرف لإنجاز الحاجة والنجاح
فيها — ثم أظن أن قافية البيت الذي أتى به مغيرة وهو من أبيات لآبي
الأسود الدؤلي وهي :

إذا أرسلت في أمر رسولاً فأفهمه وأرسله أديباً
ولا تترك وصيته بشيء وإن هو كان ذا عقل أريباً
فإن ضيعت ذاك فلا تله على أن لم يكن علم الغيوباً
وقال آخر :

تخير إذا ما كنت في الأمر مرسلًا فبلغ آراء الرجال رسولها
وردد وفكر في الكتاب فإنما بأطراف أقلام الرجال عقولها
وقال آخر وأصاب (إلا إذا أراد الحث على الرشوة فإن ذلك جناية
وليست على تبعها) :

إذا كنت في حاجة مرسلًا وأنت بأنجازها مغرم
فأرسل حكيمًا ولا توصه وذاك الحكيم هو الدرهم
وقد قالوا : رسولك أنت إلا أنه إنسان آخر — وقال علي بن أبي طالب
رسولك ترجمان عقلك ، وكتابك أبلغ ما ينطق عنك ،

ويروى أن قريشا لما أرادت بناء الكعبة حوالى سنة ٦٠٥ م قبل البعثة النبوية بنحو خمس سنين كانوا يهابون ذلك ويؤمنون أنه كان بها حية فضيعة تخرج من بئر الكعبة التي كانت يطرح فيها ما يهدى لها كل يوم فتشرق^(١) على جدار الكعبة، فلا يدنو أحد من بئرها إلا احزألت^(٢) وكشت بصوتها وفتحت فاهها، فكان ذلك مما يهابونه أيضا فيقال إنها بيناهى ذات يوم تشرق على جدار الكعبة كما كانت تصنع بعث الله إليها طائرا (العقاب) فاخطفها وذهب بها، فقالت قريش إنا لنرجو أن يكون الله قد رضى ما أردنا، وصحت نيتهم على هدمها وإعادة بنائها وقال الزبير بن عبد المطلب فى ذلك بعد أن تم البناء :

عجبت لما تصوبت العقاب إلى الثعبان وهى لها اضطراب^(٣)
وقد كانت يكون لها كشيش وأحيانا يكون لها وثاب
إذا قمنا إلى التأسيس شدت تهينا البناء وقد نهاب
فلما أن خشينا الزجر جاءت عقاب تتلب لها انصباب^(٤)
فضممتها إليها ثم خلت لنا البنيان ليس له حجاب
فقمنا حاشدين إلى بناء لنا منه القواعد والتراب
غداة نرفع التأسيس منه وليس على مسوينا اثياب^(٥)

(١) تشرق قعد فى موضع تشرق عليه الشمس .

(٢) احزألت : رفعت ذنبها ، وكشيش الأفعى صوت جلدها إذا حكّت بعضها ببعض .

(٣) التصوب الانحدار والانقضاض من علو إلى سفال .

(٤) تتلب أى تقصد ، وانلاب على طريقته إذا لم يعرج بمنه ولا يسره ، وكانه منحوت من أصلين [تلا] إذا تبع ، [أب] إذا أقام ، أو [أب] فهو قريب من هذا المعنى ، يقال أب أبالة إذا استقام وتبأ فكأنه مستقيم مستمر على ما تلوه ويتبعه عما هو يسيله ، والاسم من انلاب [التلا بية] على وزن الطمأينة والقشعريرة .

(٥) يريد مسوى البنيان ، ويروى [على مساوينا] وهو فى معنى ما يروى أنهم كانوا ينقلون الحجارة إلى الكعبة وهم عراة ويرون ذلك وينارونه من باب التشهير والجد فى الطاعة ، والمراد من [مساوينا] السوءات ، فهو جمع مساة [مفعلة] من السوءة ، والاصل مساوى فسهلت الهمزة .

أعزبه المليك بنى لؤى فليس لأصله منهم ذهاب
وقد حشدت هناك بنو عدى ومرة قد تقدمها كلاب
فبو أنا المليك بذاك عزاً وعند الله يلتمس الثواب
كأنى بك ترى فى هذه الآيات صورة الحية بشعة منكرة رقصاء الإهاب
دَعَف اللعاب تتشرق على جدران الكعبة وقد استراحت إلى شعاع الشمس
وحرارتها تسمع كشيش جلدها إذا تحركت واضطربت، وفحيح فيها إذا
صاحت وصوتت، قد رفعت ذنبها ولعبت به واشترأت تتطلع بعنق دقيق
صلب ورأس عريض مفلطح، وقد زاغ منها البصر: ورمت من عينيها بالشر
والشرر وتحفرت للوثة الفاتكة واللدغة القاتلة، وأنذرت من يدنو من حماها
بالسم الذعاف الناقع والموت الزؤام العاجل^(١) وقد تجهم وجهها واكفهر
وعبس، وأدارت طرفاً متوقداً كشهاب القبس، فاذا راعك هذا المنظر المفزع
راقك رؤية العقاب الكاسر لقوة^(٢) خدادية خافقة الجناح شديدة اليأس قد
ساقها الله إلى هذه الحية الخبيثة الظالمة وسلطها عليه فجاءت منقضة من عنان الجو،
فأسفت^(٣) إلى تلك الأفعى التى أرادت أن تؤذى فى الحرم، فبسطت عليها
جناحي نعمة لارحمة، وأنشبت بهامسريها، وعلقتها بين مدى حادة من أظافرها،
وطاحت بها إلى حيث ينتقم الله من الظلم والعدوان، وتم لبيت الله الحرام
البناء والعمران.

وسأل الزبير يوماً عن رجل ظالم كان بمكة فقيل له قد مات، فقال: بأى
عقوبة كان موته؟ قالوا: مات حتف أنفه، فقال: لأن كان مائة قولون حقاً

(١) الدم اللعاف القاتل السريع الاثر، والموت الذعاف والذؤاف السريع الذى يجعل القتل.
وكذا الموت الزؤام أى السريع العاجل والكريه المجهز.

(٢) القوة العقاب واسعة الشدين والحقيقة السريعة الاختطاف. والمندرية الشديدة السواد.
وهو من أسماء العقاب من الحذرة وهى الظلمة.

(٣) أسف الطائر دنا من الأرض فى طيرانه.

إن للناس لمعادا ينصف الله فيه المظلومين ويأخذ فيه للمظلوم من الظالم (وفي هذا دليل على إقراره بالبعث رحمه الله .

هذا ولما بلغت سن الزبير نيفا وسبعين سنة وذلك قبيل البعثة النبوية حوالى سنة ٦١٠ م كان الزبير زرعاً قد نضج وأن حصاده وإن لم يرد إلى أرذل العمر (فقد مات أبوه عن أكثر من تسعين عاماً) وأحس بدنو حمامه قال - وصدق -

ينعى نفسه ويصفها ببعض ماتحلت به ، ويهدى ابنته إلى طريق رثائه :

ياليت شعرى إذا ماحمى وقعت ماذا تقول ابنتى فى النوح تنعانى (١)
تنعى أبا كان معروف الدفاع عن الـ مولى المضاف وفكاً كما عن العانى (٢)
ونعم صاحب عاف كان رافده إذا تضجع عنه العاجز الوانى (٣)
أى والله كان الزبير كما يقول وخيراً مما يقول ، كان شهماً شجاعاً أياً ،
وسمحاً جواداً سخياً ، وجميلاً وسيماً بهياً ، وكان خطيباً شاعراً وسيداً حكيماً
عاقلاً ، وهو فوق هذا وذاك المدافع عن حقوق قومه بقوة جنانة وبلاغة
لسانه ، والذاب عن حوزة عشيرته والحائى على أهله ورحمه وإخوته ، وهو
الناصر لقريش فى حرب الفجار ، والذى كان عوناً لهم ورداً فى إدراك الطوائف
والأخذ بالثأر ، بل هو الابن البار الذى يخفض لوالده جناح الرحمة ، والآب
الرموف الذى يعطف على بنيه عطف محبة وحكمة ، والأخ الشفيق الذى يعطف
على بنى أبيه ، والعم الرحيم اللطيف الذى لا جفاء ولا فظاظة فيه ، وهو المدلل
لرسول الله ﷺ فى طفولته الرشيدة ، والمتقائل له بمستقبل باهر وحياة سعيدة ،

- (١) الحقة من حم الأمر إذا قدر ومنه الحمام وهو قضا الموت وقدره . وحة الفراق ما قدر وقضى منه .
(٢) المضاف من أحبط به فى الحرب من أضافه إلى الأمر إذا ألجأه . والمضاف أيضاً هو الواقع
بين الخيل والابطال وليس به قوة . والمخرج الملجأ المتقائل بالشر والعانى الامير .
(٣) العانى الرائد الطالب للمعروف . والضيق وكل طالب فضل أو رزق . وعفاه يعفو إذا قصده
طالباً معروفة ورفده أعانه وأعطاه . وتضجع فى الأمر إذا تقاعد عنه ولم يقيم به . وضجع فى الأمر
وأضجع قصر عنه ووهن . وتضجع عنه تغافل .

يزين كل ذلك منه نفس شريفة أبية ، وهمة رفيعة علمية ، وبعد مسافة فكر وروية ،
 وذوق سليم وطبع مستقيم ، وظن كاليقين يكاد يخترق به حجاب الغيوب ،
 ورأى ينير به ما أظلم من داجي الخطوب ، ورجوع إلى الله تعالى فيما يطرأ
 وينوب ، وإقرار خالص برؤيته ، وإذعان خاضع لقدرته وعزته ، واعتراف
 صريح بالبعث والنشور ، وعلم أنه إلى الله تصير الأمور ، ولما قضى نحبهُ وترحل
 عن الدنيا قالت أخته صفية (١) ترثيه :

بكي زبير الخير اذ فات ان كنت على ذى كرم باكيه
 لو لقطته الأرض مالمتها أو أصبحت خاشعة عاريه
 قد كان في نفسى أن أتركه لا موتى ولا أتبعهم قافيه
 فلم أطق صبرا على رزته وجدته أقرب إخوانيه
 لو لم أقل من فى قولاه لقضت اللوعة أضلاعيه
 فهد الشأمى واليماني إذا ما حضروا ذو الشفرة الداميه

وقال ضرار بن الخطاب الفهري (٢) رضى الله عنه يبيكه :

(١) صفية رضى الله عنها هي أم الزبير بن العوام تزوجها في الجاهلية الحرث بن حرب بن أمية
 بن عبد شمس أخو أبي سفيان فات منها فتزوجها العوام بن خويلد بن أسد ومات عنها في حرب الفجار
 ثم توفيت سنة ٢٠ في خلافة عمر . وسعت ابنها الزبير باسم أخيها الذي كانت تؤثروه ونحبه حبا جادا وإن لم يكن
 شقيقها كذلك كنت ابنها الزبير بأبي الطاهر كنية أخيها الزبير أيضا فقد كان له ابن يقال له الطاهر كان
 من أطرف ثيوان مكة وتوفي غلاما في حياة أبيه . وبه سمي رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنه الطاهر —
 [وعبد الله] بن الزبير بن عبد المطلب ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم صحابي جليل ، وكان فارسا
 بطلا وحضر حنيناً مع الرسول وكان عمره يوم وفاته صلى الله عليه وسلم نحو ثلاثين سنة وشهد قتال
 الروم في خلافة أبي بكر وأبلى في الجهاد أحسن بلاء . وقتل شهيدا يوم أجنادين سنة ١٣ رحمه الله —
 ويروي أنه دخل يوما على رسول الله صلى الله عليه وسلم فكساه حلة وانعده إلى جنازة وقال [إنه ابن
 أمي وكان أبوه يرحمني] وكان يقول فيه أنه حبي وابن عمي [وامه هي عائكة بنت أبي وهب بن عمرو
 ابن عاتكة بن عمران بن مخزوم فهي ابنة خال زوجها الزبير] .

(٢) ضرار بن الخطاب بن مرداس بن محارب بن فهر بن مالك القرشي كان أبوه الخطاب رئيس
 بني فهر وكان ضرار من فرسان قریش وشجعانهم وشعراهم المطبوعين المجودين بل لم يكن في قریش

بكي ضباغ على أيه لك بكاء محزون أليم
 قد كنت أشهده فلا رث السلاح ولا كهيم^(١)
 كالكوكب الدرى يع لو ضوءه ضوء النجوم
 ذخرت به أعراقه ونما والده الكريم^(٢)
 بين الأغر وهاشم وعين قد فرعا القروم^(٣)

يريد ضباغة بنت الزبير بن عبد المطلب وهى صحابية جليلة تزوجها
 المقداد بن عمر (المعروف بالمقداد بن الأسود فولدت له عبد الله وكريمة، وقتل
 عبد الله يوم الجمل مع عائشة رضى الله عنهما وزوجها المقداد قديم الإسلام
 وشهد بدر أوله فيها مقام محمود مشهور وشهد أحدا والمشاهد كلها مع رسول
 الله ﷺ وشهد بعده فتح مصر وتوفى بالمدينة فى خلافة عثمان سنة ٥٣ هـ
 وأختها أم الحكم بنت الزبير صحابية أيضا وتزوجت ابن عمها ربيعة بن
 الحرث بن عبد المطلب فولدت له بنيه محمدا وعبد الملك وعبد المطلب —
 وزوجها ربيعة بن الحرث ابن عم رسول الله ﷺ صحابى جليل توفى بالمدينة سنة
 ٣٣ فى خلافة عمر، وبنوه الثلاثة أدركوا رسول الله ﷺ، وكان آخرهم وفاة

فى زمنه أشعر منه ومن عبد الله بن الزبير. وكان قبل إسلامه ينصر المشركين بلسانه وسيغف ثم أسلم
 يوم الفتح وحسن إسلامه وله شعر كثير فى الغزوات قبل الفتح وبعده. وشهد مع أبى عبيدة فوج الشام
 وتوفى فى أوائل خلافة عمر.

(١) أشهده أى أحضر معه فى الحروب والغزوات واليف الكهيم والكهام هو الكليل لا يؤثر فى
 الضريبة ويروى [سلم] بدل كهيم فله من السلم بمعنى السلام وهو الاستسلام والاقتياد والخضوع
 والاستخاء.

(٢) يقال فلان فلان عرقه زاخروا قرأى أنه كريم بنى إلى كرام. ويقال إن عرق الكريم ليزخر
 بالكرم ويروى (زحرت) بالهاء المهملة — يقال زحرت به أمه وتزحرت عنه إذا ولدته وأنجبت به.
 (٣) الأغر الرجل الكريم الأفعال الواضحة والشريف المشهور النقى المرض. وأراد بالأغر
 جد الزبير لأنه وهو عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم — وفرع كل شئ أعلاه. وفرع القوم ثم يفهم
 ويسمى. وفرع القوم فرعا وفروعا علامهم بالشرف أو بالجلال. وفاقهم فى الفضل والكمال.

عبد المطلب بن ربيعة وكان يسكن المدينة ثم انتقل إلى الشام في خلافة عمر^١
ونزل دمشق وبها توفي سنة ٦٢ وروى عنه ابنه عبد الله بن عبد المطلب
ابن ربيعة، وروى عن عبد الله ابنه محمد الذي روى عنه ابن شهاب الزهري
وغيره رحمهم الله جميعاً .

انتهى ما أردنا إيجازه من حياة الزبير بن عبد المطلب ، وموعدنا بالإطنا
في سيرته وأدبه وفي سيرة شقيقه أبي طالب قريب في كتاب خاص إن شاء الله

أحمد يوسف نجاني

الأبواب الكلية اللغة العربية - الأ

والإتاذ بدار العلوم سابقاً

الموسيقا في الأدب العربي

عرض ونقد وتحليل

- ٢ -

المؤلف: الأستاذ عبد اللطيف المغربي

وطالعتني شهور نكدية عسراء، غمرتني بضروب من الأسى، ورمتني بغربة
أذهلتني وحشتها، فنضب من نفسي معين السرور، وتقلص عني ظل الطمانينة
والدعة، وأصبحت ضاحيا أقاسي في عزلي آلاما نفدت إلى صميم القلب،
فندّ عني جميل الصبر، وأعوزني حسن التأسي، فجعلت أروض النفس على
ما يجمل، وآخذها بوصايا الحكماء، وأدب العلماء، فلا تزيدني إلا نفارا وإمعانا
في القلق، حتى أعياني أمرها وأشفقت عليها أن تكون بسيل يدني من التلف،
ويشرف بها على غاية الحياة.

وأراد الله اللطيف الخبير أن يأذن لي ليل هذه الغربة الساجي بالزوال، وأن
أعود إلى المغاني التي بينها درجت آمالي وأحلامي، ونضوت فيها برد الشباب
حميدا، ونسجت من دواعيها ذكرياتي الخوالد، فطابت النفس وقرت العين —
وافتقدت صديقي القديم العصفور، وطفقت أتلهسه في الرياض وعلى شواطئ
الأنهار وفوق غصون الأشجار، وحول كل واد خصيب ونبات نضير، حتى
أعياني طلبه، فتقبضت في إهابي حزينا يائسا، واعتقدت أن ذلك الصديق
حطمته بعد فراقنا حوادث الأيام وأنى غير ملاقيه. وهنا انبسطت أمامي

صفحة مودته النقية ، وتمثلت لى أخلاقه فى أبهى مظاهر الكمال ، فبكيت ماشاء
الله أن أبكى ، وكان أروع ما أبكاني عليه خلال سمحة ظفرت بها فى عالم الطير
وحرمتها فى عالم الإنسان ، خلال لم تشبها عوامل المدنية فتفتك بأسمى ما فيها
من معان روحية سامية ، وتجعل منها ما يشبه الهيكل المزخرف الخالى من
الروح . فهذه خلال يصطنعها السواد الأعظم من الناس من وفاء وإخلاص
وصداقة ومحبة ورحمة وتعاون وإيثار ، ثم هى تكاد تكون خلوا من معانيها ،
وقد أفاض عليها النفاق وزخرف المدنية ما تدسع به وتضيق ، وتعجب وتخدع ،
حتى تشابهت الأمور وأضدادها ، فشقى المجتمع الإنسانى بها لأنها لاتعدو أن
تكون أفاظا سيارة على ألسنة الناس لاتتصل بقلوبهم . ولقد دعا الرسل
الكرام إلى الأخلاق الفاضلة و ضربوا للناس أروع المثل فى التحلى بها
وأرسل الحكماء والأدباء صيحاتهم الأخلاقية إلى الناس ، ولكن النفوس البشرية
لاتزال أسيرة نوازعها فى الكثير من الناس ، وهى تتصور الأخلاق كما توحى
إليها رغائبها ، فأصبح المجتمع الإنسانى يئن مما يلاقى من عدوان القوى على
الضعيف ، والإعراض عن المحتاج ، وغلبة سلطان المادة على النزوات الروحية ،
والتطاحن على الاستئثار بالمنافع ، حتى قلت الثقة بالصدىق وأقفر القلب من
الاعتماد عليه والاطمئنان إليه — فلا غرو أن يبكى فقد صدق الطائر ذى
الفطرة النقية والمودة التى لم يفسدها تصنع .

وفى ليلة ألحت على فيها ذكريات هذا الصديق ، رأيت فى منامى مقصوص
الريش متهدل الجناحين ، فوقع فى روعى أنه لا يزال حيا يرزق . وأنتى سوف
ألقاه فطامن ذلك من نفسى ، ودعوت الله أن يحقق هذا الأمل .

وفى يوم مشرق باسم طيب الأنفاس نازعتنى نفسى الميل إلى الإمام بحديقة أصيب
فيها حظا من الهدوء والإجمام ، وما كدت أدخل إليها حتى رأيت فى طرف
منها طائرا سقيما قد ألصق أحد جانبيه بالنبات النضير كأنما يبتد به من هول

ما يلاقى من وعك الحمى ، وقد بسط جناحيه حوله تهرما بهما وضعفا عن حملهما ، وحوله عدد غير قليل من الطير قد ألف بينه الحزن على ذلك الطائر المريض - الوقور المهيّب . فراغنى هذا المنظر الغريب الذى يمثل أروع آيات الوفاء عند الطير . فرغبت أن أجلس حيث انتهيت لأرى عن كشب ما أنا معجب به . وما كدت أهدأ فى مجلسى حتى رأيت الطائر المريض يسلك طريقه إلى فى ثاقل وإعياء ، فلما قرب منى وكاد يلس بالراح شمت منه مخايل صديقى العصفور وقلت عسى أن يكونه ، وهممت أن أبدأه بالتحية ولكنى تماسكت ورضت نفسى على الصبر والثبات - وماهى إلا لمحة كخطفة البرق حتى اهتز فبدأ فى صورة إنسان نحيل قد أضرب به الهزال ، وإذا هو كما قدرت صديقى العصفور ، فخيا وسلم وتجلت سمات وجهه واضحة ، فأسرعت إليه وعانقته طويلا وبكيت وبكى حتى عجب الحاضرون لشأننا ، وكان أطول منى بكاء وأرق شعورا وأصدق وفاء وهذا قدر ما بين الطير والإنسان . وجلسنا فى صمت ونمود حركة ذاهلين من هول الموقف . حتى استعاد صاحبي بعض قواه . فخفضنا فى وصف الفرقة وما أعقبت من آلام واتّعدنا أن نلتقى فى هذا المكان بعد إبلاله مما هو فيه . والتقيناه فى موعدنا فألفيته على خير ما أرجوه من صحة ونشاط فبدأنا الحوار :-

العصفور :- علمت أقوال بعض المجددين المتطرفين فى الشعر المرسل وما ينبعون على الشعر الملقى من عيوب . فهل عندك من هذا الموضوع بقية لأحد منهم فيها جديد ؟

أنا - قد عرض لهذا البحث أحد المجددين فى كثير من الحكمة والاتزان ولعل هذا رأى الذى سأعرضه عليك . أعدل الآراء إلى اليوم قال :-
« لا جدال فى أن الموسيقى من أعظم محاسن الشعر واعتقادی الشخصى

أنها من ضرورات الشعر . وموسيقا الشعر العربى تكون فى : —

١ — الوزن .

٢ — القافية .

٣ — التصريح والترصيع (وهو الإيجاع) وما إلى ذلك من الصناعة اللفظية .

٤ — انسجام مخارج الألفاظ والحروف التى ينتخبها الشاعر .

٥ — أوجه أخرى لا أعرفها .

والذى يعنيناهنا القافية ، فالتزام قافية واحدة له ميزتان : الأولى الموسيقا . والثانية إظهار المقدرة الصناعية . وإهمال القافية له ميزتان : حرية التعبير عموما أو على الأقل فى بعض مجالات القول . وثانيا السمو بالشعر عن صناعة لفظية فانية قريبة الغور . أو على الأقل تخفيف العبء عن غير المتضلعين من اللغة تضلعا لا يستلزمه النظم فى أى لغة أخرى . فأما موسيقا القافية فتكون فى الإيقاع أى أنها تشبه القرع الرتيب بعد فقرات متساوية : فقراءة البيت هى النقرة . والطرب من الإيقاع مشاهد عند الفطريين كدقات طبول الزنج فى مراقصهم وعند الحيوان . ومنشأ هذا الطرب أنه يسبب نوعا من الاستهواء أو التخدير العصبى تنغمر فيه النفس وتصبح غير واعية وعيا تاما ما أكسبتها إياه المدنية أى أنها تتراجع كثيرا أو قليلا إلى أصلها وهو نفس الإنسان الفطرى الذى كان يعيش فى الغاب .

ثم يعود فيقول « وتمناز القافية أيضا بإظهار المقدرة الصناعية ولا أعنى بهذه المقدرة التمكن من معرفة الكلمات التى تصلح لقافية بعينها لأن هذا درجة دانية فى استيعاب اللغة وإن كان فيها عنت على الكثيرين ، ولكنى أعنى اقتدار الشاعر على ذكر ما يغمره من المعنى بالضبط مع التزام القافية . وهذا الاقتدار ليس عظيم الحظ فى الفن ، ولكنى لأرى بأسا فى اعتباره عملا فنيا

منزلة منزلة الزخارف التكميلية أو الكمالية في التماثيل، أو منزلة الإتقان الشديد لأصغر تفاصيل الرسم، وقد امتازت بهذا الإتقان الصرور الكلاسيكية، وكما يحدث للشعر يحدث للرسم فإن المدرسة الحديثة في الرسم ترمى أيضا إلى التخلص من القيود كما في الرسوم التكعيبية والرسوم التي لا يهتم فيها الفنان بإجادة التفاصيل البعيدة عن مغزى الصورة ومنطوقها.

والآن فماذا يريد أصحاب الشعر المرسل؟ يريدون حذف القافية للتخلص من القيود أو للتخفيف عن أنفسهم.

والرأى عندى أنه لا بأس من حذف القافية إذا كان الشاعر من المقدرة بحيث يعيضا عن النغم المفقود بموسيقا في أثناء البيت بله موسيقا الوزن. ويكون الحذف لسبب قى أى في مجالات من القول بعينها؛ لأن مما لا ريب فيه أن في القافية تقييدا للشاعر — لا ينكره إلا غير خبير — في بعض الشعر القصصى أو الشعر الشديد العمق الذى إذا التزمت فيه القافية خرج شديد الغموض وفيه كثير من اللبس الذى لا يمكن مجانبته وبه تفقد كثيرا من دقة المعنى.

ثم يقول «وأخيرا هل تألف الآذان الشرقية الشعر المرسل بعد تقديم عشرين أو ثلاثين ديوانا منه؟ إن هذه الألفة تستلزم أولا تغيير طبيعة اللغة العربية في أساليبها وامتلائها بالاستعارات وهذا عمل شاق ولكنه جائز الوقوع وثانيا تغيير طبيعة النفس الشرقية لأنها ألقت الاستئانة إلى النغم المستطيل الرتيب، ولأنها في قراراتها تؤثر القصيدة المجاد نغما على المجاد معنى أو تؤثر الموسيقى على التفكير والتأمل» ومن هذا يظهر لصديق العصفور تقدير الكاتب الأديب للشعرين وحيرته بينهما، فهو لا يقول بإلغاء الشعر القديم دفعة، ولا بالأخذ بالشعر المرسل دفعة وإنما يجيزه في أحوال خاصة من القول كالشعر القصصى أو الشديد العمق ليتسع المجال أمام الشاعر، وقد جعل لكل من من القديم والمرسل مزاياه.

العصفور : لازلت يا صديقي أرى في هذه الدعوى غلوّاً لا مبرر له . وإذا كانت روح العصر قد عدلت بالناس في فن الرسم عن الزخرف والأمور الجمالية ، فليس من الحكمة أن يقاس الشعر على الرسم - ليعدل - عن زخرفته ، فلكل مزاياه . والشاعر القديم في العربية لا يصعب عليه أداء الأمانة للشعر القديم ورفع مكانته والانتفاع به في كل ما يريد من دواعي العصر مع الاحتفاظ بزخرفته . والشعر عندي هبة نادرة قليلة الذيوع ، وحياته الحافلة بالقوة والخصب في هذه الندره . وليس من الرأي الموفق تيسير سبيله برفع قيوده وزخارفه حتى يصبح وردا مباحا لكل قدم عاجز ، ومتفهيق سخي ، ودعي ضعيف . ألا ترى أنه مع الاحتفاظ بقيوده الثقيلة وزخرفته الكثير ، لاتزال تتهاقت عليه فئات من أشباه الشعراء والمفتونين الذي ملئوا أطباق الأرض صياحا أشبه بنقيق الضفادع ، وخرجوا إليها بهراء من القول كعبث الأطفال ونفثات الممرورين ، فأصبحنا في فوضى أدبية آذت الأذواق وأفسدت الألسنة ، وبتنا في ليل داج من الخلط الأدبي في الموضوعات والمعاني التي يزعم هؤلاء أنهم يحاكون فيها الأدب العربي فأخفقوا كل الإخفاق ، وباءوا بالإساءة إلى لغتهم أفبعد هذا يريدون التخفيف من قيود الشعر بإطلاق قافيته ليزيدوا في عدد الأدياء الثقلاء . إنا لنريد أن تزداد قيوده ويحاط بما يدفع عنه أمثال هؤلاء ليحيا فنّا له قيمته وطلوته .

أنا : لقد قلت حقا وكشفت عن حقيقة واقعة في أدبنا الحديث من كثرة المنتسبين إليه والمدعين له . وإذا كان المجددون يرون أن الكتابة قد نهضت وتحررت من كثير من قيودها الزخرفية فالشعر لا يقاس عليها لأنها أداة المجتمع ولسانه الناطق ، ولهذا تأثرت بما يدعو إليه الاقتصاد في الزمن وسرعة المبادلة في الرأي لتيسير الأعمال وقضاء المطالب المشتبكة المتفرعة ، فهذهها الذوق الحديث الداعي إلى السذاجة في مطالب الحياة وزخارفها والآخذ بما

تيسر ولطف ، فانطلقت من عقال السجع والخيال الحافل ، والتأنيق في اللفظ
وجرت في سبيل الوضوح والمعنى الصحيح السامى ، وفوق هذا هي عامة وهو
خاص ، وهي حاجة وهو ترف ، وليس يطلب من كل مثقف أن يكون شاعرا
على حين يحسن أن يكون كاتباً ، لأن الكتابة جمال له في صناعته وليس الشعر
مثلاً ، والفنون عادة لا يفرض على المجموع الإلمام بها لأنها حظ الموهوبين .
وما يرفع قدرها إلا هذا الخصوص الذى جعلها وقصرها على أهلها ونفى عنها
كل ضعيف محروم .

عبد اللطيف المغربي

نهج القرآن

المؤلف: محمد خلف الله أحمد

المدرس بكلية الآداب

قبل أن أحدثك عن نهج القرآن ، أحب أن أسلك معك المسلك التجريبي في البحث ، فأقرأ وإياك سورة من سور الكتاب ، ولتكن سورة الرعد ، فإن لها نهجاً خاصاً في التدليل على شرف القرآن ، ودحض عناد المشركين ، وبيان الفساد في منطقهم وتفكيرهم ، وإن لها لطابعا بلاغياً جميلاً من نوع ما انفرد به القرآن الكريم . وأنا الضمين لك - إذا قرأت معي السورة إلى آخرها - أن تتذوق ناحية من نواحي الحجاج المقنع المسكت ، والبيان الرائع الجليل .

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » بسم الله الرحمن الرحيم . المر تلك آيات الكتاب والذي أنزل إليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون . الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم تلتقون . الآن وقد قرأت السورة كما يقرأ الأديب النص الأدبي ، فتناول قلباً ، ودون على القرطاس صورة من سلسلة المعاني التي تركتها قراءة السورة في ذهنك - وسترى مما كتبت أن هذه السورة تدخل بك على موضوعها مباشرة معلنة أن تلك الآيات آيات الكتاب ، وأن الذي أنزل إلى محمد من ربه الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون - وقد قامت من حولهم الدلائل الملموسة

الظاهرة التي من شأنها أن تدعو الناس إلى الإيمان بالله . فالله الذي رفع السموات بغير عمد ، ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر ، وهو الذي يدبر الأمر يفصل الآيات ، وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا ، ونوع فيها من ضروب الثمرات والجنات والأعشاب والزرع والنخيل . أليس عجيبا أن يشك هؤلاء الناس في إعادتهم خلقاً جديداً بعد أن كانوا ترابا ، وأن يستعجلوا العقوبة وقد خلت من قبلهم المثلثات . لقد كانوا إذاً على علم بهذه المثلثات التي قد خلت من قبلهم ، ولولا ذلك العلم ما استحقوا التوبيخ على عدم الاعتبار . وهم كانوا على علم بما أنزل على بعض الرسل من قبل ، ولولا ذلك ما اقترحوا على محمد آية مثل آية موسى أو سليمان .

وهنا تعود السورة إلى تمجيد الله وعلمه بما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد ، وتقديره كل شيء بمقدار ، وعلمه الغيب والشهادة والسر والجهر والخفاء والظهور ، وتخويفه الخلق . وإطاعتهم بالبرق ، وإنشائه السحاب الثقال ، وإرساله الصواعق يصيب بها من يشاء . ثم تندد السورة بمن يدعو غير الله ، وتشبهه ببساط كفيه إلى الماء ليلبغ فاه وما هو ببالغ ، وتحتاج من يتخذون من دون الله أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ، ولا يستطيعون أن يخلقوا كخلقه ، وتتبع هذا بتمثيل للقرآن — أو الحق — مشتقة عناصره مما حول هؤلاء الناس من بيئة طبيعية ، من السيل والأودية والزبد الرابي ، ومما يوقدون عليه في النار من المعادن والفلزات ابتغاء حلية أو متاع . وتفرق السورة بين أصحاب البصيرة ومراضها : فتصف الأولين بأنهم أولوا الأبواب الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ، والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ، ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب ، والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة ، وأنفقوا سرا وعلانية ، وبدرءون بالحسنة السيئة ، أولئك لهم عقبى الدار . أما مراض البصيرة فهم

المتصفون بنقيض هذه الصفات ، وأولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار .
وتعود السورة مرة أخرى إلى اقتراح هؤلاء الناس أن تنزل على الرسول آية
أخرى : فتتدد بجهلهم حكمة الله في اختيار القرآن معجزة لنبيه العربي ، وقد
اختار لبعض سابقه من الرسل آيات طبيعية كفاق الحجر وتفجير الأرض
عيونا وتسخير الرياح وإحياء الموتى ، وتقول في الرد عليهم : « ولو أن قرآنا
سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى » تاركة للذوق العربي
أن يقدر في العبارة جوابها المحذوف .

ثم تستمر الصورة على هذا النحو ، وفي حدود المعاني التي ذكرناها ، مقرر
موازنة مقرعة حتى تصل إلى خاتمتها « قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ومن
عنده علم الكتاب » .

وإنما سألتك أن تكون العناية بتصوير المعنى أولى خطواتك في تذوق
هذا النص الكريم لا أنى سمعت العارفين يقولون إن فهم المعنى فهماً صحيحاً هو
أول مرحلة ضرورية من مراحل النقد ، وقد أجرى أحد أساتذة الأدب
الإنجليزي في جامعة « كمبردج » تجربة من هذا النوع تبين له منها أن معظم
الخطأ في النقد إنما يحىء من الخطأ في حل المعنى .

وبعد فما الذى لاحظت على نظم هذه السورة وأسلوبها التعبيري ؟ أتحب
أن تدون ملاحظاتك على هذه الناحية أيضاً ؟ إذا فافعل . إن لهذه السورة كما
ترى نهجا في نسجها متميزا : فهي تنتظم ثلاثا وأربعين آية ، ختام كل آية فيها
كلمة ممدودة بالالف بعدها حرف (إلا ستا منها ممدودة بالواو) وثلاث
خواتيم هذه السورة كما ترى على روى الباء (عقاب - الألباب ، الحساب . . .)
(الخ) ، وأكثر من نصف هذا العدد على روى الراء (بمقدار - بالنهار - القهار
(الخ) ، ونصف العدد الأول على روى اللام (المتعال - وال - الثقال . . . الخ)

ثم عدد صغير على روى الدال (هاد - المهاد - الميعاد ... الخ) ، وعدد على روى القاف (الميثاق - واق ...) وواحدة على روى العين (متاع) ومن المدودات بالواو خمس على روى النون . تبتدىء بها السورة (يؤمنون - توقنون ... الخ) ، وواحدة على روى الباء (القلوب) .

ولعلك لاحظت بجانب هذا شيئاً من التكرار المتتابع في خواتيم بعض الآيات (لكل أجل كتاب . يحجر الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) وكذلك (فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب . ألم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب) .

لهذه السورة إذا وحدة ظاهرة في موضوعها وهو إظهار شرف الكتاب المنزل ، وتسفيه آراء المعاندين في طلبهم قرآنا غير هذا ، أو آية مادية مثل آيات بعض الرسل السابقين . وأول آية فيها تقرب أن تكون تقريراً للموضوع كله ، ثم تتوالى بعد ذلك الآيات مفصلة الموضوع من جميع نواحيه في دلالة القرآن على قدرة الله وصدق الرسول ، وفي منزلته من الآيات السماوية الأخرى ، وفيما كان من شأن المعاندين معه ، وفي بيان انتفاع الناس به أو عدم انتفاعهم .

ولهذه السورة أيضاً طابع خاص في خواتيم آياتها ، حصرنا حروفه الختامية في خمسة أو ستة متقاربة المخارج (ب . ر . ل . ن .) ، وبعض هذه الخواتيم مكرر تكراراً رقيقاً لا يكاد يشعر به القارئ إلا إذا نبه إليه . وقد تشتمل الآية على لفظة مكررة أربع أو خمس مرات دون أن يشعر القارئ . بآثر عمل لهذا التكرار (قل من رب السموات والأرض قل الله قل أفأخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا قل هل يستوى الأعمى والبصير أم جعلوا الله شركاء خلقوا كخلته فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار) .

وشئنا آخر تلاحظه في كثير من آيات هذه السورة ، ذلك أن القصص يبدأ فيها بصورة الفعل الماضي ويستمر شيئاً حتى إذا قاربنا آخر الآية وجدنا جملة اسمية أو مضارعية ينتهي عندها الكلام ويحسن السكوت والاستقرار (الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش . يدبر الأمر يفصل الآيات لعلمكم بلقاء ربكم توقنون . وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي . . . يغشى الليل النهار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) .

أما ناحية الجمال الفني في السورة فإنك تلمسها في كل آية من آياتها ، وأظهر ما تظهر في مناسبة الألفاظ لموضوعاتها : فإذا كان المقام مقام تدليل على قدرة الله جاءت العبارة كلها حافلة بهذا المعنى من رفع السموات بغير عمد والاستواء على العرش وتسخير الشمس والقمر . ومد الأرض وإغشاء الليل النهار . وإذا كان المقام مقام تخويف سمعت الآية تعجب بما فيها من رعد وبرق وصواعق . وفي مقام الكلام عن المخالفين تسمع نقض العهد وقطع ما حقه أن يوصل ، والإفساد في الأرض واللغة وسوء الدار .

و ثم ناحية أخرى هي تناسب الألفاظ والأصوات وجريانها معاً في عذوبة وسهولة حتى إنك لتلمس لكل آية طابعاً خاصاً في أصواتها (ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلثات) (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) (الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب . الذي آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب) (ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كُلم به الموتى) (أولم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها) .

ولعلك لاحظت أن قاموس السورة مشتق أغلبه من البيئة العربية الطبيعية فهناك السماء والشمس والقمر والأرض والرواسي والأنهار والثمار والجنات

والأعنان والزروع والنخيل والبرق والسحاب الثقال والرعد والصواعق
والأودية والسيول والزبد والنار والحلوة والمتاع والرزق .
وفيها من المتقابلات أزواج : الليل والنهار ، والسيئة والحسنة ، المغفرة
والعقاب ، والغيض والازدياد ، والغيب والشهادة ، والسر والجهر ، والمستخفي
والسار ، والخوف والطمع ، والطوع والكراهة ، والغدو والآصال ، والنفع
والضرر ، والأعمى والبصير ، والظلمات والنور ، والحق والباطل ، والجفاء
والنافع ، والوفاء والنقض ، والضلال والهدى ، والمحو والإثبات ، والدنيا
والآخرة .

لعلك ترى معنى أن الحكم على نهج القرآن يتطلب قراءات كثيرة من هذا
النوع ، ويتطلب معرفة تامة بخصائص الأساليب ومميزاتها . وبعد فمن أي فنون
الأدب نعد القرآن ؟ كان من بعض مرمى الكفار به صاحب الدعوة أن
الذي أتاهم به هو من قبيل الشعر .

وقد أنكر القرآن عليهم ذلك فقال « وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن
هو إلا ذكر وقرآن مبين » ، وقال « وما هو بقول شاعر » . فأما أن القرآن
مغاير لما تواضع العرب على تسميته شعرا فذلك ما لا شك فيه . ولكن من
المحتمل أنهم رأوا لهذا القرآن تأثيرا سحريا من نوع ما كان يبعثه فيهم سماع
أشعارهم ، وأنهم رأوا له جرسا موسيقيا هو في الذوق من خصائص الشعر .
ومن المحتمل أنهم رموه بكونه من قبيل الشعر ليقللوا من شأنه وليقولوا إنه
من مقدور البشر . ولو أنهم اعتقدوه حقيقة شعرا ، ولم يروه خارجا عن أساليبهم
في الشعر لبادروا إلى معارضته لأن الشعر - كما يقول الباقلاني في إعجاز
القرآن - مسخر لهم ، مسهل عليهم ، لهم فيه تصرف عجيب ، واقتدار لطيف .
ولعل قائلا يقول : إذا كنا قد نفينا عن القرآن خصائص الشعر عند العرب

فهل تنطبق عليه بعض خصائص الشعر عند الفرنجة ؟ إن في القرآن شيئا كثيرا مما يمكن أن يسمى في اصطلاح النقاد أدبا قصصيا ، وشيئا مما يمكن أن يسمى أدبا تهذيبيا ، وأدبا نقديا ، وبعض آياته التي تشتمل على تمجيد الله وتقديس صفاته والتي تخاطب العاطفة والوجدان أكثر مما تخاطب الذهن والفهم ، تكاد تشبه في موضوعها ما يسميه الأوربيون الشعر الغنائي الذي كان الأصل فيه عند اليونان أن ينظم لتمجيد الآلهة وتكريم الأبطال .

كل هذا حسن ، ولكن الشعر الإفرنجي أيضا له ضوابطه وموازينه وألحانه وليس شيء من هذا بمنطبق على القرآن .

إن الأدب ينقسم عادة إلى فني الشعر والنثر . وإذا أردنا أن نعرف نوع فن القرآن بالنسبة لهما فلنقف عندهما وقفة قصيرة ولنحاول التفرقة بينهما من حيث كونها نظامين متميزين من أنظمة التعبير .

إن الشعر يختلف عن النثر لافي مادته فحسب ، ولا في طريقته فحسب ، ولكن في الاثنتين معا . فالشعر وليد الحياة الوجدانية وترجمانها ، وإذا خاطب فإنما يخاطب الانفعال والعاطفة والذوق والإحساس . وهو من حيث طريقته يهب الشطر الكبير من عنايته للألفاظ وجرسها وموسيقاها وتناسبها وصورها الفنية .

فهو - كما عرفه أحد الشعراء الأجانب - أحسن الكلمات في أحسن نظام . وأنت في قراءتك الشعر الجيد لا تستطيع أن تتجاهل جاذبية الألفاظ فإنهم يفرضن أنفسهم عليك فرضا .

أما النثر فهو ترجمان الحياة الفكرية المعقدة ، وهو أداة التعبير إذا تشعبت الحياة وتنوعت مطالب الفكر ، وأصبح للشعب فلسفة ونقد وسياسة واجتماع راق . وعناصر النثر الأفكار لا الكلمات ، فما الكلمات فيه إلا رموز عن المعاني ومطايا لها . فإذا جذبت الكلمات الانتباه إلى أنفسهن وحان بين القارئ أو

السامع وبين تمام الانصراف إلى المعنى كان ذلك إلى الشعر أقرب . ولهذا السبب كانت ترجمة النثر إلى لغة أخرى أيسر من ترجمة الشعر ، فالفكرة - لكونها مستقلة عن الألفاظ التي تعبر عنها - يمكن أن تنقل دون كبير مشقة . ولكن للعبارات الشعرية يتعذر نقلها فهي مجموعة كلمات ، وجودتها إنما هي في نسج كلماتها ، وفي الأصوات والروابط التي تكون لهذه الكلمات ، وقد لا تكون لمقابلاتها في اللغات الأخرى .

فأين منزلة القرآن إذا بالنسبة لهذين الفنين ؟

إن في القرآن لسحرا يصل بينه وبين الشعر ، وفي ألفاظه رونق تتطلع إليه أعناق الأساليب الشعرية ، وإنك لو أخذت لفظة من ألفاظ القرآن فوضعتها في مكان مناسب من كتابتك أو خطابتك ، كسب أسلوبك منها حلية وجمالا يحس بها كل ذى ذوق في الأدب ، وهناك صلة وشبه بين بعض موضوعات القرآن وموضوعات الشعر كما أسلفنا . وبعض السور المكية التي نزلت في مهد الإسلام ترى لها فواصل قصارا ، والتزاما أحيانا لحرف واحد في أغلب السورة يقرب من التزام الروى في القصيدة ، وتسمع لهذه السور عند قراءتها رنيننا ونغما يحلو تجويده والترنم به .

والقرآن مع ذلك ليس ببعيد من النثر ، ولم يعن أن ينفي عن نفسه صفة النثرية كما عني في أكثر من موطن بنفي صفة الشعرية . ومثانيه منها الطويل ومنها القصير ، ومنها ما يقرب أن يكون مسجوعا ، وما يصح أن يسمى مرسلا وفي بعض أساليبه شبه بأسلوب الخطابة . وموضوعاته التي يعالجها من حجاج وخصام ، وإجمال وتفريع ، وتذكير وتفريع ، وتدليل وتشريع ؛ كل أولئك موضوعات تقتضى طبيعتها أن تعالج في أساليب نثرية .

ورغم كل هذا وذاك فالقرآن ليس بالشعر ولا هو بالنثر ، ولا يمكن أن

تنطبق عليه خواص أحد الفنين كاملة ، وبينه وبين ما صحت نسبته إلى الرسول
من أحاديث وزسائل وخطب بون كبير ، وإنما هو إذاً بيان عربي فريد ، له
طابعه البلاغي الخاص ، وله طريقته البلاغية الخاصة ، ولم نجد شيئاً من ماثور
الأدب الجاهلي يشابهه أو يدانيه ، ولم يجيء بعده في الأدب الإسلامي كتاب
أفصح في أن ينحو نحوه ، أو يقلد فنه ، أو يتحدى إعجازه ؟

محمد خليف الله

وطنية المتنبي

لهـرؤـنـاـهـ عـلـى النـجـدـى نـاـصـف

مفتش المعارف بالامكندرية

كان مولد المتنبي بالكوفة ، في حي من أحيائها يسمى كندة . وقد نسبته الناس إلى المدينة والحى معا ، فقالوا : المتنبي الكوفي الكندي . وبقي المتنبي بالكوفة حتى نما واشتد ، ثم دعتة دواعى العيش إلى الضرب فى الأرض فرحل عنها ، يطوف فى الآفاق ، ويتنقل من بلد إلى بلد ، يعرض شعره على السراة وأصحاب الجاه والسلطان ، طلبا للرزق ، أو مصانعة فى سبيل الأبهة والملك . أما أهله فقد بقوا بالكوفة ، لم يتبعه منهم سوى ابنه محمد ، رحل معه إلى فارس وقتلا معا فى العودـة منها .

فالمتنبي كان موصول السبب بالكوفة على الرغم من هجرته منها : كانت لأهله مستقرا ومقاما كما كانت له منشأ ومربي . فهل تراه وعلاقته بها على ما رأيت . قد أدى حقها عليه ، برأ بها ووفاء لها ؟ هل تراه أشاد بمزاياها ، أو فتن بجمالها ، أو حن إلى عهده فيها ؟ أم هل تراه حملنا على الاهتمام بها والتفكير فيها ، والعطف عليها ، كما فعل بشعب بوان^(١) ودشت الأرز^(٢) ؟ إننا إذا رجعنا إلى الديوان ، نتقصى قوله فى الكوفة ، ونتنور عاطفة

(١) موضع بفارس ، كثير الأشجار والمياه . وكان يعد من جنات الدنيا الأربع ، وصفه المتنبي فى القصيدة التى مطلعها : مغاني الشعب طيبا فى المغاني بمنزلة الريح من الزمان

(٢) موضع حسن على نحو ٣٠ ميلا من شيراز ، تحف به الجبال ، وفيه غابات ومياه ومروج وصفه المتنبي فى الأرجوزة التى مطلعها : مأجدر الأيام والليالي بأن تقول ماله ومالى

الوطنية عنده ، ونسب غورها من نفسه . تخلص لنا ظاهر تان : —
الاولى : أنه لم يتحدث عن وطنه إلا عرضا ، وأنه إذ يفعل كان يقتضب
الحديث اقتضابا فيقصره على القدر الذي يقتضيه المقام ولا زيادة . وهذه
هي أقواله في الوطنية :

قال من قصيدة نظمها في صباه :

در در الصبا ، أيام تجرى رذولى بدار أثلة^(١) ، عودى
وقال من قصيدة يمدح بها سيف الدولة ، ويذكر إيقاعه ببعض قبائل
العرب .

تذكرت ما بين العذيب وبارق^(٢) مجرعو الينا ، ومجرى السوابق
وصحبة قوم يذبجون قنيصهم بفضلات ما قد كسروا في المفارق
وليسلا توسدنا الشوية^(٣) تحته كأن تراها عنبر في المرافق
بلاد إذا زار الحسان بغيرها حصى تربها ثقبه للخناق
سقتنى بها القطر بلى مليحة على كاذب من وعدها ضوء صادق

وقال من قصيدة في مدح على بن إبراهيم التنوخي :
أمنسى الكناس ، وحضرموتا ووالدتي ، وكندة والسييعة^(٤)
والظاهرة الأخرى أنه يبدو بعض الأحيان فاطر الوطنية ، بل خامدها
تراه لا يبقى عليها ، ولا يستمسك بفكرتها . ويتمثل ذلك إمامي الفخر بكثرة
التنقل من بلد إلى بلد كقوله :

بأى بلاد لم أجر ذوائبي وأى مكان لم تطأه ركائبي
وإما في إعلان الزهادة في الوطن . والرغبة عن المقام فيه إذا جفاه صديق
من أهله ، أو نبت رحابه به ، أو لم يطب له القرار فيه كقوله :

(١) موضع بظاهر الكوفة (٢) موضعان بظاهر الكوفة (٣) الكناس
وحضرموت مملتان بالكوفة وكندة محلة غربيها ، والسييع سوق بها ومحلة

إذا صديق نكرت جانبه لم تعينى فى فراقه الحيل
فى سعة الخافقين مضطرب وفى بلاد من أختها بدل
وقوله :

وما بلد الإنسان غير الموافق ولا أهله الأدنون غير الأصادق
وقوله :

وكل امرئ، يولى الجميل محبب وكل مكان ينبت العز طيب
وإما فى الجهر بالاستغناء عن الوطن، وعدم التعلق به، أو التفكير فى
العودة إليه، كقوله :

وإني لنجم تهتدى بى صحبتى إذا حال من دون النجوم سحاب
غنى عن الأوطان لا يستفزنى إلى بلد سافرت عنه إياب
وعن ذملان العيش إن ساحت به وإلا فى أكوارهن عقاب
لهذا وذاك اتهم المتنبي بعقوق الوطن، واضطراب فكرة الوطنية (١)
وهو فى رأي برىء، من التهمتين جميعا، فلم يكن فيما رويت من شعره فى بعض
أحياء الكوفة والمواقع القريبة منها - وطنيا يصدر عن عاطفة واجدة، وإحساس
متأثر. ولم يكن فيما رويت من شعره فى التحلل من فكرة الوطنية وعدم التقيد
بدواعيها - أفاقا يصدر عن عقيدة راسخة وإيمان بما يقول. ولكنه كان فى
هذه وتلك وفى مواقف أخرى كثيرة - صاحب فن ليس غير، يخلص لفنه
الإخلاص كله، ويبذل قصاره لمرضاته والوفاء له، ثم لا يعنيه بعد ذلك أين
يقع قوله من الوطنية، ولا كيف يكون من آرائه ونظرياته فيها

لقد كان المتنبي مشغول البال، جم المتاعب، كثير الهموم. كان صاحب
مطامع جليلة، هام بها، ووهب جميع مواهبه لها، ولم يأل جهدا فى إدراكها،
حتى ما كان يعمل إلا لها، ولا يتحدث إلا متأثرا بها من قريب أو من بعيد

لقد سعى إلى الملك أهون ما يكون شأنه وأضعف ما يكون ناصراً ، وأقل ما يكون عدداً ، فأخفق في مسعاه إخفاقاً سريراً ذريعاً ، وألقى في غيابة السجن ، فلبث فيه حتى كاد يتلف ثم خرج منه عائلاً مجهوداً وخاملاً مغموراً : لا يحسه أحد ، ولا يباليه أحد ، فما زال يدأب ويلح في الدأب حتى نفقت بضاعته ، وطار صيته ، وقدره الناس حق قدره ، فعاودته فكرة الملك رويداً ، وبلغت غايتها ، من القوة والوضوح في أثناء مقامه في مصر ، فحاول ما وسعته الحيلة ، وصانع ما أمكنته المصانعة ، لعله يقضى منها وطراً ، فأخفق كذلك ، وأصبح امرأً محذوراً : لا يؤمن جانبه ولا يصح إغفال أمره والسكوت عنه ، فضربت عليه الرقابة والتجسس ، وحدث حرите ، وهدد في أمنه وعافيته ، فلم يجد ملتهجداً يعوذ به إلا الفرار ، فركبه على خطر ومغامرة ، ولم يبلغ طيته إلا بشق الأنفس . ثم إنه كان رجلاً محسوداً ، طالما دبرت له المكائد ، ونصبت الشراك ، ودست الدسائس ، لم يسلم منها أينما توجه ، وحيثما أقام . وكان مغرماً بالمال يحبه حباً جماً ، ولا يألوه كدحاً وطلباً ، كأنما أراد أن يقيم به دولة من الأبهة والجاه ، بعد أن أعميته دولة الصولة والسلطان . وهيئات ثم هيئات مع هذه المشاغل الثقال أن يفيق الإنسان لوطنه ، يحن إليه ويتغنى بمحاسنه كما يتغنى الخلى الفارغ الفؤاد .

هو إذاً صاحب فن كما أسلفنا ، ينظر إلى القصيدة نظره إلى الموضوع المستقل أو الوحدة الفنية ، لا صلة لها بغيرها ، ولا تشابه بين أصولها وأصول غيرها إلا بمقدار ما يكون بين موضوعيهما من أسباب الاتصال والمشابهة . فمن حق القصيدة عليه أن تستوفي نصيبها من أسباب القوة والتأثير ، وإن أصيب هو في هذه السبيل بتخالف الآراء ، والاضطراب بين المذاهب والنظريات ، صنيع الممثل اللبق ، يولع بفنه ، ويبذل له كل ما يقتضيه من أسباب الإحسان فهو لذلك يأخذ نفسه في جد وصرامة بالاندماج في واقعفه ، ويلبس لكل موقف لبوسه الذي يلائمه ، ويوارى من شخصيته ووجداناته كل ما يجافيه

أو يشذ عنه ، فبينما تراه في مرقفه طاغية متجبراً ، يدعو إلى الخسف ويمكن للاستبداد ، تراه في آخر عدلاً متواضعاً ، يدعو إلى السلم ، وينادى بالمساواة والشورى ، ولقد تراه يضحك ويعربد وإن يكاد قلبه لينفطرهما وكمداً ، أو تراه يبكي ويتراجع وإن يكاد قلبه ليطير بهجة وسروراً .

والآن لعلاك تريد مثلاً من التناقض الذي ساقه الفن إليه ، وأوقعه فيه ، فلم ينكره ، ولم يحاول التخلص منه . دونك إذا مرقفه من العرب مثلاً أول . فالمتنبى كما لا يخفى . عربى صميم ، أبوه من جعفى بن سعد العشيرة ، وجدته من همدان . وهو إذ يتجرد من تمثيله الشعرى ، ويخلو إلى نفسه يتحدث إليها وتتحدث إليه . يقف من العرب الموقف الطبيعى ، فينتسب إليها ، ويفخر بها . قال :

لى منصب العرب البيض المصاليث ومنطق صيغ من در وياقوت
وهمة صار دون العرش أسفلها وصار ماتحته فى لجة الحوت (١)
أما حين يمدح بشعره ، ويزجيه للتجارة والكسب ، فلا يعنيه أن يكون رأيه فى العرب ما يكون ، إنما يدع ذلك لمطالب الموقف ، ودواعى الفن كما يراه صاحب الفن المحترف ، فهو دائماً من ورائها ، يذهب مذاهبها وينزل على أحكامها فى غير تخرج ولا مبالاة .

استمع له يرثى للعرب ، ويتوجع لشقوتها ، أن ذهب عزها ودا لسلطانها واستبدت بها الأعاجم ، يسومونها الخسف والمهانة ، على جفوتهم ، وسوء منبتهم ، وأنهم لا أدب عندهم ، ولا أحساب لهم ولا عهود :

أحق عاف بدمعك الهمم أحدث شيئاً عهداً بها القدم
وإنما الناس بالملوك ، وما يفلح عرب ملوكها عجم
لا أدب عندهم ولا حسب ولا عهود لهم ولا ذمم

في كل أرض وطئتها أمم ترعى بعبد بكائهم غم
يستخشن الخز حين يلبسه وكان يبرى بظفره القلم
إنه هنا كما سمعت . شاعر العرب ، يحس إحساسها ، ويترجم عن آلامها ،
ويشير فيها الحمية والنخوة ، لا يخاف بخسا ، ولا يتوجس حرمانا ، فطبيعة الموقف
تقتضى ذلك وتدفع إليه ، لأن الممدوح في القصيدة عربي ، فلا عليه أن يكون
هو أيضاً عربياً وإن لم يكنه .
ثم استمع إليه يلزم العرب ، ويزرى بعيشة البداوة ، ويؤثر العجم على
العرب ، ويمتدح عيشة الحضر :

أرأيت همّة ناقتي في ناقة نقلت يدا سرحا وخفا بجمراً
تركت دخان الرمث في أوطانها طلبا لقوم يوقدون العنبرا
وتكرمت ركباتها عن مبرك تقعان فيه وليس مسكا أزفرا
إلى أن قال :

من مبلغ الأعراب أنى بعدها شاهدت رسطاليس والإسكندرا
وملئت نحر عشارها فأضافني من ينحر البدر النضار لمن قرى
أتدري سر هذا التحول من النقيض إلى نقيضه ؟ إنه الممدوح فهو هنا
ابن العميد ، وهو من سلالة الأعاجم ، فهل عليه أن يكون هو كذلك أعجمياً
وإن لم يكنه ؟

ثم دونك مثلاً آخر من مناقضاته الفنية ، إذا صح هذا التعبير . قال يتحدث
عن بني كليب ، وقد أوقع بهم سيف الدولة :

ولو غير الأمير غزا كلابا ثناه عن شمر سهم ضباب
ولاقي دون تأيهم طعانا يلاقي عنده الذئب الغراب
وخملاً تغتذى ريح الموامى ويكفيها من الماء السراب
فهو كما ترى — يذكرهم بالخير ، ويصفهم بالشجاعة والمنعة ووفرة العناد .

أتدري لماذا؟ لأن الممدوح عربي، وبينه وبين بني كلاب صلة من نسب،
فمدحهم بما مدحهم به — يعد كذلك مدحاً له.

واسمع ما يقول عن بني كلاب أنفسهم في مقام غير المقام:

أرادت كلاب أن تقوم بدولة لمن تركت رعى الشويحات والإبل
أبى ربها أن يترك الوحش وحدها وأن يؤمن الضب الخبيث من الأكل
وقاد لها دليز كل طمرة تنيف بخديها سحق من النخل
وكل جواد تلمطم الأرض كفه بأغنى عن النعل الحديد من النعل
فقلت تريغ الغيث والغيث خلفت وتطلب ماقد كان في اليد بالرجل
محاذر هزل المال وهي ذليلة وأشهد أن الذل شر من الهزل
أتدري لم هذا التحول أيضاً؟ لأن الممدوح هنا دليز بن لشكروز،
وهو دليز لا عربي، خرج لقتال الخارجي الذي نجم بالكوفة من بني كلاب.
فالداعية الفنية في مدح موقف هذا الدليز من بني كلاب غير الداعية الفنية في
مدح موقف سيف الدولة منهم، وبين المرقفين من الاختلاف قدر ما بين
الرجلين من الاختلاف كذلك.

والآن، هلم إلى الديوان في ضوء الحقائق التي أسلفنا، نرجع البصر في
أبياته الوطنية، ونتعرف الظروف التي تكلفتها، والدواعي التي دعت إليها. قال:

در در الصبا أيام تجريد ز ذیولی بدار أثلة عودی

وهذا البيت من مقطعة في الغزل، اختار الشاعر موضوعاً لها حكاية العاشق
الأشيب، يتشوق ماضيه ويحن إليه، ويتوجع من حاضره ويضيق به. وأبو
الطيب كما لا يخفى. لم يكن شاعراً غزلاً، ولكنه متغزلاً مقلداً. ولعله في غزله
هنا أبين ما يكون صنعة وتكلفاً، فالقصيدة فيما يقول العكبري، وفيما يبدو عليها
من شعره في عهد الصبا. وها هو ذا برغم حداثة يلبس لبوس الشيخوخة
المتهدمة، وبتهكف عراطب الشيخ العاشق ووجداناته. ألا تراه كيف يدعي

أن قد أصبح مقسم النفس بين السخط والرضا ، والنفور والحنين : يسخط على حاضره العابس المتجهم وينفر منه بما فيه من ضعف الشيخة وإعراض الغرائي ، ويرضى عن ماضيه المشرق البسام ويحن اليه بما كان فيه من لهو ومتاع . ولكن كيف يستقيم له التمثيل ، وتتساوق معه مشاهد الموقف في حبكة واتساق إذا لم يعين موضع لهوه ومرحه ؟ إذا لا بد من موضع يذكره . وما يمنع أن يكون ذلك الموضع هو دار أثلة ؟ أليست مكانا بظاهر الكوفة ، مسقط رأسه ومرتع صباه ؟ ليكن ذلك . وقال :

أمنسى الكناس ، وحضر موتا ووالدتي ، وكندة ، والسديعا

والمقام في هذه القصيدة مقام مدح واستمناح ، فالمعول فيه على التوريط وشدة التأثير ، لعل الممدوح يثيبه بجائزة سنية ؛ إذ كان الشاعر يومئذ ما يزال عائلا مجهودا . وليس أحق بمحبة الإنسان فيما يعرف الناس من وطنه بين البلاد ، ومن أمه بين الأهل والأقارب . إذا ، فمن الخير له ، ومن أسباب التأثير في ممدوحه أن يزعم له أن قد أنساه أمه ووطنه ، بحسن ملاطفته ، وجميل إيناسه ووفرة عطاياه . وقال :

تذكرت ما بين العذيب وبارق مجر عوالينا ، ومجرى السوابق

وصحبة قوم يذبحون قنيصهم بفضلات ما قد كسروا في المفارق

وليلاً توسدنا الثوبة تحته كأن تراها عنبر في المرافق

بلاد إذا زار الحسان بغيرها ترى تربها ثقبنة للبخانق

والشأن في هذه الأبيات للمفاخرة وقوة التأثير معا . ذلك أن سيف الدولة

حارب بعض قبائل العرب ، فأوقع بهم وشتت جمعهم ، فأراد المتنبي أن يخلد

هذا النصر كما خلد غيره . ومن خصائص المتنبي في بعض مدائحه أن يطاول

مدوحيه ، ويدعى مشاركتهم في بعض أحوالهم ^(١) ، وأن يعمل على أن يظل
أثيرا عندهم ، ومقربا إليهم بالمخادعة والدهان ، وإعلان الانقطاع إليهم ، وبيع
كل عزيز بهم ^(٢) فإذا كان سيف الدولة في حربه مع قبائل العرب يستحق
الحمد على يسالته ورباطة جأشه وشدة احتماله للمكاره — فماذا يمنع المتنبي أن
يتطاول إلى مفاخرته ، وينسب إلى نفسه مثل الذي يصف من مناقبه ؟ أليس
هو المتنبي الشاعر الطموح الذي يقول لكافور :

وفؤادى من الملوك ، وإن كان لسانى يرى من الشعراء
فليتقمص إذا شخصية البطل المظفر ، تشغله مفاخره الحاضرة عن مفاخره
الماضية حتى يكاد لا يذكر منها شيئا إلا في المناسبات . وهاهو ذا إيقاع سيف الدولة
بقبائل العرب قد ذكره ، والشئ بالشئ يذكر - عهدا له بالعذيب وبارق ،

(١) قال يخاطب كافورا ، وقد بنى دارا ، ورغب إليه أن يذكرها في شعره :

إنما التهنئات لكفاء ولما يدنى من البعداء
وأنا منك لا ينهى عضو بالمسرات سائر الأعضاء

وقال يعزى سيف الدولة عن عبد له يسمى يماك :

لا يحزن الله الأمير فائق لاخذ من جالاته بنصيب

وقال يعاتبه :

ويتنا لورعيتم ذاك معرفة إن المعارف في أهل النهى ذمم
وقال يتحدث عن أبي العشائر :

شاعر المجد خدته شاعر اللفظ ، كلانا رب المعاني الدقاق

(٢) قال في مدح كافور الاخشيدي :

أحن إلى أهلى ، وأهوى لقاءهم وأين من المشتاق عنقاء مغرب
فان لم يكن إلا أبو المسك أوهم فانك أحلى في فؤادى وأعذب

وقال يمدح سيف الدولة :

تركت السرى خلفى لمن قل ماله وأنطت أفراسى بتعاك عسجدا
وقبعت نفسي في هواك محبة ومن وجد الاحسان قيدا تقيدا

قضاه في صحبة قوم أنجاد أولى حمية وبأس ، وأولى ذخيرة وعتاد ، غاراتهم متعاقبة ، ومطاردتهم الأعداء غير منقطعة ، يعملون السيوف في رءوسهم بلا رفق ولا مرحة ، فيتحطم منها ما يتحطم ، ويبقى من أصرها ما يبقى ، فيتخذون من بقاياها مدى يذبحون بها القنائص والصيد . وربما افترشوا أرض الثوية إذا جن الليل : ينامون عليها هائئين ، طيبة نفوسهم ، قريرة أعينهم ، بما يفوح من شذا تربها العبق المعطار ، فإذا ما وصل أبو الطيب من هذه المفاخرة إلى الغاية التي أراد ، وأدخل في نفسه الرضا من هذا الباب انقلب على عقبه كالعهد به خداعا مداهنا ، يريد أن يستأثر بسيف الدولة ويبلغ من نفسه غاية التأثير ، وأقبل يدعو إلى الهجرة من الوطن إذانبا ، وإلى مفارقة الأقارب إذا تغيروا وفسدت بينهم علائق اللفة والتناصر ليوهم سيف الدولة أنه أحب إليه من قومه ، وأن جواره أكرم عليه من وطنه ، مع ما فيه من متعة وجمال ، وما يصله به من مفاخر وذكريات غوال ، قال :

وما بلد الإنسان غير الموافق ولا أهله إلا دنون غير الأصادق

*
* *

فلم تكن هناك إذا آراء في الوطنية ارتأها الشاعر ، وعرضها في شعره ، فإذا هي متضاربة ينقض بعضها بعضا ، وإنما كانت هناك موضوعات مختلفة ، اقتضى المقام في كل منها ذكر الوطن بأسلوب خاص ، فلبى الشاعر داعي الفن ، غير متأثر إلا به ولا ناظر إلا إليه .

على أن المتنبي كان يدون سوانح أفكاره وخواطره العابرة ، كما تتمثل لوقتها في ذهنه ووجدانه ، لا كما تشاكل آراءه ونظرياته السابقة ، مشاكلة النظير لنظيره ، أو الفرع لاصله ، فكان كالمرقب الذي يصور كل ما يمر به ، أو يتصدى له من أجرام السماء على الأوضاع التي بصاذفها عليه حين التصوير ،

لا كما يتطلب التشابه بين أوضاعها السابقة واللاحقة وهذا يوافق طريقته في صياغة الأساليب، إذ كان فيما يقال^(١). يرسلها إرسالا على الصور التي تنهيا له؛ غير عابئ بما قد يصيبها من التعقيد أو ضعف التأليف.

على النجدي ماصف

مفتش المعارف بالإسكندرية

(١) التبيان : ١ : ٣٣٧ ، والصبح المنبي ١٠ : ١٨٤

العباسى

للمؤلف محمد أحمد برانى

المدرس بالإبراهيمية

خف على قلب الرشيد، فكان يتملح معه ويناديه ، يا عباسى ، وكان من حقه عند ما يريد أن يتظرف له أن يناديه يا أبا العباس ؛ لأن له ابنا يسمى العباس ، ولكنه بالغ فى استملاحه فهو العباسى ، مقبلا ومدبرا ، وهو العباسى غائبا وحاضرا . أما اذا جد الجد ، فهو الفضل بن الربيع الذى ينحدر نسبه من أحد موالى عثمان بن عفان رضى الله عنه .

والربيع أبوه ابن أمة علقها أبوه ، فأنتجته ، فاستعبد واشتراه زياد بن عبد الله الحارثى ، وقدمه هدية إلى خاله أبى العباس السفاح فخدمه ، وحظى عنده ، ثم خدم أبا جعفر المنصور من بعده فخص به ، وظل أثيرا عنده حتى قلده العرض عليه ، واستوزه وقلد الفضل ابنه الحجابة .

وكان الربيع يحاول أن يجعل لابنه منزلة عند الخليفة المنصور ، ويجعله خفيفا على قلبه ، حبيبا إلى نفسه ، قريبا فى مجلسه ، مستشارا فى أمور دولته ، ولعل ذلك كان أعظم ما يتمناه ، إذ لا شئ عند الإنسان يعدل أن يرى ابنه قريبا من صاحب السلطان ، متمتعا بثقته ، آمرا بما يؤمر به ، ناهيا عما ينهى عنه يتصرف فى شئون دولة ، ويرعى عهد أمة ، وكل من حوله سميع مطيع ؛ ولذلك

تراه لما استوزره المنصور ترك أن يسأله حاجه تخفيفا ، وكان ذلك على غير عادة منه ، فقال له المنصور يوما : قد انقبضت عن مسألتى حوائجك حتى أوحشتنى ، فقال : ما تركت ذاك ، أنى وجدت لها موصعا غير أمير المؤمنين ولكنى ملت إلى التخفيف ، فأمره المنصور أن يعرض عليه ما يحب من حوائجه قال الربيع : حاجتى يا أمير المؤمنين أن تحب الفضل ابنى . قال المنصور : ويحك ! إن المحبة لا تقع ابتداء ، وإنما تقع بأسباب ، فقال : قد أوجدك الله السبيل إليها . قال : وما ذاك ؟ قال : تنعم عليه ، فإذا أنعمت عليه أحبك ، فإذا أحبك أحبته ، قال المنصور : — فقد والله حببته إلى قبل أن يقع من من هذا شيء . ولكن كيف اخترت له المحبة من بين سائر الأشياء ؟ فأجابه الربيع : لأنك إذا أحبته كبر عندك صغير إحسانه ، وصغر عندك كبير إساءته وكانت حاجته عندك مقضية ، وذنوبه عندك مغفورة .

هذا هو الربيع يقرب ابنه من أمير المؤمنين ، ويلتقى فى قلبه محبته ، ويطلب ذلك من الخليفة بعد أن أوحشته بالإعراض عن السؤال ، والإلقباض عن مساءلته شيئا ، حتى يقع ما يطلبه من نفس أمير المؤمنين فى المحل الذى يريده . ويظهر أن الذين يتصلون بصاحب السلطان تحيط بهم أزهار وأشواك ، ويكثر حولهم الساعون بهم ؛ لأن المنافسة فى مثل هذه المواطن يغلب أن تكون السعاية وليدتها ، ولذلك لا يصلح كل إنسان لها ، وإنما يصلح لها كل جبار داهية ، عركته الأيام ، فإن شرب من حلوها كأسا تجرع من مرها كئوسا ، لا يطغيه السلطان ولا تبطره النعمة ، ولا تمر أمامه الحوادث كما تمر أمام كل الناس . يجب أن تكون كل جوارحه غيرنا ، وكل جوارحه آذانا ؛ يعرف معنى الهمسة واللغة والغمزة ، ويقدر لكل ماحوله نتائج يبتغيها أو يتقيها ، ويكون أحذق من حوله ، غير جاهل فى صناعته ولا متهم فى دينه وليس ذا هوى فى رأيه ، حتى تكتب له السلامة .

وقد أراد الربيع أن ينشئ ابنه تنشئة سياسية تنفعه في قصور الملوك ، فأراد أن يحفر بئرا لأبي عبيد الله معاوية بن عبيد الله بن يسار ، وزير المهدي ، فسعى عليه وحمل المهدي على مكارهه ، مع أنه كان مختصا به من أيام المنصور . وكان ابنه الفضل يصاحبه في الزورة التي كانت سببا في غضبه من أبي عبيد الله ولأمه على أن مر به ، وطرق بابه قبل أن يطرق باب الخليفة فحجبه ثم أذن له ولم يقم إليه ، فأقبل الربيع على الفضل وقال له : أنت أحق يا بني . قال : وما حقى ؟ قال : تقول لي : كان ينبغي ألا تجيء ، وإذا جئت وحجبتك ألا تقيم منتظرا ، ولما دخلت فلم يقم إليك ، أن ترجع فلا تكلمه !! لم يكن الصواب غير ما فعلته كله ، ولكن والله الذي لا إله إلا هو لا أخلق جاهي ولا نفقن مالي ، حتى أبلغ مكروه أبي عبيد الله . ثم كان من الربيع ما بلغ به ما أراد مع أبي عبيد الله ، فأحفظ عليه المهدي حتى أقصاه عن وزارته ، وكل ذلك كان على مرأى ومسمع من الفضل الذي تعلم السياسية على أبيه وتخرج فيها على يديه اتصل الفضل بن الربيع بالرشيد ، وكان صاحبه ، وكاتم سره ، وموضع ثقته ؛ يستشير به فيشير عليه بما يوافق هواه ، ويرضى عنه . ويأتمنه على ما لم يأتمن عليه غيره ، ولقد كانت له يد في نكبة البرامكة ؛ لأنه سعى عليهم عند الرشيد ، وحمله على مكارههم . كما سعى أبوه من قبل على أبي عبيد الله عند المهدي ، وحمله على مكارهه . ولقد قالوا : إذا أراد الله عز وجل هلاك قوم وزوال نعمتهم — جعل لذلك أسبابا . فمن أسباب زوال أمر البرامكة تقصيرهم بالفضل بن الربيع .

وسبب سعاية الفضل على البرامكة يذكره الجهمشيارى في كتابه «الوزراء والكتاب» - في ص ٢٠٠ :

«وما حكى من سبب سعى الفضل بن الربيع على البرامكة — ما حكاه محمد

ابن داود بن الجراح في كتابه المسمى « كتاب الوزراء » عن محمد بن إبراهيم مولى خديجة بنت الرشيد عن أبيه ، وذكر أنه حضر ذلك . قال : نادى الفضل ابن الربيع الرشيد ، وخص به ، فقال لجعفر : قلد الفضل بريد ناحية بأخذر زقها ، ويستعين به على خدمتي ؛ فقال له جعفر بسلاسة خلقه : اختر . فقال : الموصل وديار ربيعة ؛ فأمر أن تكتب كتبه عليها ، وراح بها إلى أبيه ، فلما عرضها عليه ، وعرفه حال الفضل وخصوصيته — غضب يحيى وقال : هذه ناحية إلى أخيك ، وقد صرفناه عن أرمينية ، وتصرفه عن هذه ؟ وكان ولي خراج أرمينية وحربها ، وصرف عنها !! فقال : ما كنت لأفعل . فقال : فالمرسل . فقال : لا والله ، فكره جعفر إغضاب أبيه ودافع الفضل ، وقرب عليه المواعيد ، وكان البرامكة قد فارقوا الرشيد على شيء يطلقونه له من المال للحوادث سوى نفقاته وما يحتاج إليه هو وعياله . فعزم على الفصد ، فقال لجعفر : يا أخى — أنا على الفصد وأريد التشاغل بالنساء ، فكم تبعث إلى لما أهبه لهن ؟ قال : ما شاء أمير المؤمنين ، قال : عشرة آلاف درهم ، قال : وأين المال ؟ ولكن خمسة آلاف درهم . قال : فباتها ، فبعث بها إليه ، ثم قال لجلسائه ، وقد افتصد : أى شيء تهدون إلى ؟ ، فقال كل واحد منهم : قد أعددت كذا وكذا ، واحتال الفضل بن الربيع في التخلص إلى منزله ، فرهن حقه من قطيعة الربيع ، وهو العشر على مائة ألف درهم عند عون الجوهرى الحرى ، فقال : إني أريد أن أهدىها إلى الخليفة ، فصيرها جددا ضربا ، فى عشرين بدرية ديباج ، مختمة بفضة ، وكان عون يحفظ للربيع يدا . فقال للفضل : أطابت نفسك عن جميع نعمتك فى هدية اليوم ؟ فأعلمه أن له عند الرشيد مواعيد ، فقال له عون : فإن عندى خادمين مسلولين ^(١) روميين أحدهما ناقد ، والآخر وزان . جملى الصورة مراهقين ، وقد وهبتهما لك . وأحضره تابوت آبنوس محلى بالفضة .

فصير البدور فيه مع الموازين والصنجات ، وأقفل بقفل فضة ، وغشاه
بديباج وكسا الغلامين الديباج ، وألبسهما المناطق والمناديل المصرية ، ووجه
بهما وبالتابوت مع من يحمله إلى دار الندماء ، فلما ثنى الرشيد الدم ،
قال : اعرضوا على هداياكم ، فقدمت هدية يحيى وجعفر والفضل بن يحيى من
فاكهة ومشام ، وما أشبه ذلك ، وعرض عيسى بن جعفر وغيره هداياهم . فقال :
للفضل بن الربيع : أين هديتك يا عباسي ؟ وبذلك كان يدعو ، قال : أحضرها
يا أمير المؤمنين ، فقال : تجده قد ابتاع هدية بخمسين درهما ، فقال للفراش :
احملوها ، فحملوا شيئا راع الرشيد لما رآه ، وكشفوا عن التابوت فاستحسنه . ثم
حضر الغلامان ، ففتح أحدهما القفل ، فأخرج الموازين والأوزان ، وأخرج
الآخر البدور ، ففتح بدرة بدرة ، واستوفى وزنها وختمها ؛ ولم يدر الرشيد
ما يستحسن من جلالة الهدية ، واستطير فرحا ، وأمر بحمل المال ، وإدخال
الغلامين إلى دار النساء ليفرقا المال على ما يأمرهما به ، وقال للفضل : ويحك
يا عباسي !! ، من أين لك هذا ؟ ، قال : سيعرفه أمير المؤمنين ، قال : لتقولن .
قال : بعثت حتى من قطيعة الرسول لأسرك لما رأيتك قد فصدت وأنت مغموم .
قال : والله لأسرنك ، وقام فدخل .

وانصرف جعفر يجر رجليه إلى أبيه ، فحدثه الحديث ، فكتب كتب
الفضل على بريد الموصل وديار ربيعة وديار مضر ، وختمها وبعث بها إليه ،
فردّها وقال : لا حاجة بي إليها . ولم يزل يحمل الرشيد عليهم حتى أوقع بهم —
فكان يكره ذكرهم بالخير ، ويكره أن يمدحهم أحد في مجلسه . حتى إن أبا
العتاهية حينما أنشده :

ولى الشباب فما له من حيلة وكسا ذؤابتي المشيب خمارا

أين البرامكة الذين عهدتهم بالأمس أعظم أهلها أخطارا

تغير لونه ، وظهرت الكراهية في وجهه . وما رأى منه بعد ذلك خيرا .

وكذلك كانت نفوس البرامكة من الفضل : حقد وغل وحسد وموجدة ، وكانوا يكرهون أن يلود به أحد من ذوى الرأى والفضل والأدب حتى المغنين ، وكان يسخطهم على الناس أن يروهم فى بيته أو داخلين فيه أو خارجين منه . فلقد لقي الفضل بن يحيى البرمكى إبراهيم الموصلى المغنى خارجا من بيت الفضل بن الربيع ، فكان كانه يترصده ، فلما وقعت عينه عليه ، ناداه : من أين يا أبا إسحاق ؟ أمن عند الفضل بن الربيع ؟ فقال إبراهيم : نعم ، غير متعذر من ذلك ، فقال : خروج من عند الفضل بن الربيع إلى الفضل بن يحيى ! هذان والله أمران لا يجتمعان لك ! ، فأجابه إبراهيم : والله لئن لم يكن فى ما يتسع لكما حتى يكون الوفاء لكما جميعا واحدا ، ما فى خير . والله لا أترك واحدا منكما لصاحبه ، فمن قبلنى على هذا قبلنى ، ومن لم يقبلنى فهو أعلم . فقال له الفضل ابن يحيى : أنت عندى غير متهم ، والأمر كما قلت ، وقد قبلتك على ذلك .

ورد إبراهيم الموصلى على الفضل بن يحيى ، فيه جرأة وفيه قسرة ، وليس فيه رعاية لما للبرامكة من حرمة وموضع عند الخلافة فى ذلك الوقت ، إلا أنه ليس بمعقول أن يغالظ إبراهيم الموصلى الفضل البرمكى ويخاشنه ، إلا إذا كان يعلم حق العلم أن لابن الربيع منزلة وكرامة فى نفس الخليفة تساوى — أو على الأقل تدانى — منزلة البرامكة ؛ فهو يستطيع أن يحميه منهم ، ويدفع عنه أذاهم إن نقموا منه صلته به ووجدوا فى أنفسهم منه ؛ وإن فى ملاينة البرمكى له آخر الأمر وتركه على حاله فى الاتصال بابن الربيع دليلا على مكانهما جميعا فى نفوس البرامكة ، ولو أن ابن الربيع كان عندهم مقتحما مبدؤا ، لا يرجى ولا يخشى — لحالوا بينه وبين إبراهيم مهما كلفهم ذلك .

فالبرامكة لم يحسنوا أن يصطنعوا الفضل بن الربيع ؛ فإنهم كانوا على عظمتهم يخشونه ويتقونه ، ولكن إلى حد لا يجعلهم ينتقضون على أنفسهم ، أو يحدون

من سلطانهم . فهو مثلاً يصير إلى يحيى بن خالد ، ويسأله حاجة فيتقاعد عليه ، فيها ، فينهرف من عنده مغضبا ويقول :

عسى وغمى يثنى الزمان عنانه . بهتريف حال والزمان عشور —
فتقضى لبانات وتشقى حسائك . ويحدث من بعد الأمور أمور
فلما سمعه يحيى امتقع وتأثر وقال : نعم يحدث الله من بعد الأمور أموراً ،
ثم يقسم على أبي العباس ليرجعن ؛ ويتحمل هذه المسألة في ماله ، ثم لا يبيت
أبو العباس حتى يرضى .

هكذا كان يحيى بن خالد في مسأله إياه ، وما كان كذلك في توليته بريد
الموصل وديار ربيعة كما أمر سيدهم جميعاً وخليفتهم هرون الرشيد . يحيى بن
خالد يخشى أن يماطل الفضل بن الربيع في وجهه ، ولكنه يجرؤ أن يخالف
الخليفة ، ويدافع الفضل ، ويقرب عليهم المراعيد ، وليس لذلك سبب أكثر
من أن يريد الموصل وديار ربيعة في يد ابنه جعفر ، فكره أن يخرج ذلك من
يد ابنه إلى يد الفضل بن الربيع وإن كان في ذلك مخالفة أمير المؤمنين .

ويظهر أن الفضل كان يحقد عليهم في نفسه ، ولكنه كان ينتظر الفرصة
المواتية التي يستطيع أن يتمكن بها من قلب الرشيد ، حتى إذا أمكنته الظروف
من استيلائه على قلبه ، ثم من سوء تصرف البرامكة وطغيانهم ، وتناسيهم
جلال الخلافة وجلال السلطان — استطاع أن يفعل مثل ما فعل أبوه الربيع
من قبل مع أبي عبيد الله زمن المهدي ؛ فمكن الله له بفضل سعايته ، كما مكن
لأبيه بفضل سعايته وشديد تأثيره وقدرته على اللف والدوران في الكلام ،
ومعرفة الأمور التي يجب أن تتبع في مخاطبة الملوك .

ولقد بلغ من الدهاء ما جعله ينظر إلى هوى الخليفة أين يكون ، فيضع
نفسه حيث يكون ذلك الهوى ، وحيث يقع من نفس صاحبه موقعا جميلا
يجعله مقدما على غيره ، أثرا عنده ؛ ولو كان ذلك الهوى فيمن يرجع بلحن ،

أو يطرب بنغم . حكى صاحب الأغاني في الجزء السادس أنه لما مات المهدي وملك موسى الهادي ، أعطى الفضل بن الربيع بريده دنانير ، وقال : الحق بمكة ، فأتى بابن جامع ، واحمله في قبة ، ولا تعلمن بذلك أحداً ففعل البريد ذلك ، ثم ذكره موسى الهادي ذات ليلة ، فقال لجلسائه : أما فيكم أحد يرسل إلى ابن جامع ، وقد علمتم موقعه مني ؟ فقال له الفضل بن الربيع : هو والله عندي يا أمير المؤمنين ، وقد فعلت الذي أردت ، وبعثت إليه فاتى به في الليل ، فأعجب الهادي بالفضل ، وولاه حجابته بعد أن أعطاه جائزة سنوية . وجرى يوماً حديث بينه وبين الرشيد ، فقال له الرشيد : كذبت ! ، فلم يغضب ولم يتغير ، ولكنه أظهر لباقة وحسن تصرفه في فنون الحديث ، وقال للرشيد : وجه الكذوب لا يقابلك ، ولسانه لا يخاطبك ، فنفى عن نفسه صفة الكذب في لباقة بعبارة ضمنها مدح الخليفة بخير ما يمدح به الخلفاء .

ظل كل من البرمكيين والفضل بن الربيع يجد في نفسه على الآخر مودة عظيمة انتهت بغدر الرشيد بالبرامكة ، وظل من بقي منهم حياً في ذل السجن حتى عفى عنه بعد الرشيد .

وليس يدفع عن الرشيد مذمة السعاية ، أنه بعد نكبتهم حزن عليهم ، وندم على ما فرط منه في حقهم ، وأطراهم وقرظهم ووصفهم وقال : كنا نعيب عليهم ، وقد صرنا نتمنأهم ونبكي عليهم ، وكان يتمثل بقول حنظلة بن عرادة :

عتبت على سلم فلما فقدته وجربت أقواما بكيت على سلم
وبعد أن نكب الرشيد البرامكة لازمه الفضل بن الربيع ، وتولى الوزارة وغطى ميل الرشيد إلى الفضل على قلبه حتى أصبح لا يسمع عتب عاتب ؛ ولا لوم لائم ، وبلغ به ذلك أنه سأل يوماً أحد خاصته : بأي شيء يتحدث الناس ؟ فقال : يتحدثون بأنك تقبض على البرامكة ، وتولى الفضل بن الربيع الوزارة !

فغضب وصاح به، وما أنت وذاك؟، ويل لك!!، فأمسك صاحبه ولم يزد شيئاً.

وكان الفضل يحضر مجالس أنس الرشيد وطربه، ويصف له الجوارى بالحسن والإحسان والظرف والأدب، فيسأله أن تسخو نفسه بهن، وأن تكون له سلوة عنهن، فيسخر بهن، ويتمنى لو سخا بنفسه التي يفدى بها أمير المؤمنين فيغلب الجوارى أمير المؤمنين على قلبه. ومثل تلك الأمور لا تمر من غير أن تترك في النفس أثراً حميداً تحمله الخلافة لصاحبها، وتقربه إليها، وتزيد مرتبته عندها؛ وبخاصة إذا كانت تأتي من ناحية حبيبة إلى من فرغ باله وترف عيشه ولقد كانوا يستشفعون به عند الرشيد لعلو مرتبته وعظيم محله عنده وعن استشفع لهم أبو العتاهية، فإنه حينما وجد عليه الرشيد كتب إلى الفضل يستبطل شفاعته.

أجفوتى فيمن جفاني وجعلت شأنك غير شاني؟
ولطالما أمنتى مما أرى كل الأمانى
حتى إذا انقلب الزمان ن على صرت مع الزمان
فكلم الفضل فيه الرشيد، فرضى عنه.

وكان هو المدير لأمره، والمختص به، وقاضى حاجات منه، ورفيقه في الحج، وعضده في الغزو، وظل في المحل الأول عنده، والمقدم على من سواه حتى إنه عندما أراد أن يبني بيتاً له في بغداد وهب له خمسة وثلاثين ألف درهم معونة له على بنائه، حتى إذا خرج إلى طوس اعتل بها، ثم ألحت عليه العلة حتى تحدث الناس بشأنها، فلما علم بذلك الأمين « وهو يعلم مكان الفضل من الخلافة » أرسل إليه كتباً يطلب إليه القبول إلى بغداد، والاحتياط على ما في العسكر إن حدثت بالرشيد حادثة، فلما علم الرشيد بأمر هذه الكتب، طلب إلى الفضل بن الربيع أن يأمر حاملها وهو بكر بن المعتمر بإحضارها إليه،

فأنكرها بكر ، فطلب الرشيد من الفضل أن يحتال عليه لأخذها منه ، وتسليمها إليه ، ولكن بكرا ينكر ويستمر في إنكاره ، والفضل يتوعد ويتهدد ، ويعلم بكرا أنه إن لم يقدم الكتب بلغ منه غاية المكروه ، فأقام بكر على الجحود والإنكار مع أنهم قنبوه من قرنه إلى قدمه ، فأيقن بالموت ويأس من نفسه ، وتوقع خروجها ، وكاد يعمل على الإقرار ، ولكنه لا يئأس من الفرج وبيننا هو في أسوأ حال إذ به يسمع ناعيه ، وإذا بالفضل بن الربيع يقبل عليه ينعى إليه أمير المؤمنين ، فيعلم أن الله أنجاه ، وأنه قد بدأ حياة جديدة فاطمأن على نفسه ، وأخرج الكتب من حيث هي ، وسلم كتب الفضل إليه .

إذن خرج الرشيد من الدنيا . وآل أمر الخلافة إلى ابنه الأمين ، وتوشك أن تشب نار الخلافة بين الأمين والمأمون ؛ فإلى أيهما ينحاز الفضل بن الربيع ؟ إنه ينحاز إلى محمد الأمين ، لأنه ولي العهد ، ولأن له فيه ثقة ، ولأنه يستطيع أن يؤثر فيه ، ولأنه ليس معه من هو مثل الفضل بن سهل ، فينازعه السلطان والتسلط على الخليفة . إذن انضم الفضل بن الربيع إلى الأمين ، وخرج الأمين به وكتب إلى أخيه المأمون كتابا جاء فيه : واضمم إلى الميمون بن الميمون الفضل بن الربيع ولد أمير المؤمنين - رحمه الله - وحرمة وأهله ، وأمره بالمسير معهم فيمن معه من رابطة وجنده . ويقول فيه أيضا مخاطبا المأمون : وإياك أيضا أن تفذ رأيا ، أو تبرم أمرا ، إلا برأى شيخك ، وثقة آبائك : الفضل ابن الربيع ، وأقر الخدم على ما في أيديهم من الأموال والخزائن والسلاح ، ولا تخرجن أحدا منهم عن ضمن مايلي إلى أن تقدم على به ، وإن أمرت لأهل عسكري بعتاء أو رزق ، فليكن الفضل بن الربيع المتولى لإعطائهم على دفاتر يتخذها لنفسه بمحضر من أصحاب الدواوين ، فإن الفضل بن الربيع لم يزل يتقلد مثل ذلك عند مهمات الأمور .

فالفضل بن الربيع هو الميمون بن الميمون ، وهو الأمين على حرم الرشيد

وولده وأهله ، وهو ثقة الرشيد والمهدي — فلا عجب أن يكون ثقة الأئمين أيضا ، وإذا كان ثقة الأئمين ، فإن المأمون لا يتصرف إلا بإذن منه ، وبعد إجازته . ولذلك لم يكن غريبا أن يجد الفضل بن الربيع في المسير إلى بغداد من غير أن يعرج على المأمون ، أو يلتفت إليه ، ولم يقبل من رسوله الذي أرسله في أثره ، ولم يلتفت إليه أيضا . لذلك كان طبيعيا أن يحقد عليه المأمون ، وأن يحقد هو على المأمون بعد ذلك ، لأنه أصبح لا يأمنه على نفسه ، فهو لهذا يغري الأئمين بخلع المأمون ، وبالإيضاء لابنه ، إذ قد تحدث للأئمين حادثة تذهب بحياته . فيقع هو في نار المأمون يصطليها حرى مبيدة . فهو بعد أن ورد عليه من بغداد ، وتولى العرض عليه أغراه بالمأمون ، وحمله على أن يكتب إليه يسأله التجافي له عن بعض الأعمال بخراسان ، ويخبره أنه سيرسل إليه رجلا يتقلد البريد من قبله ليكاتبه بأخباره ؛ ثم زاد أن حرمه مالا كان أبوه الرشيد أوصى له به ، وما منع من كان ببغداد من حرمه وولده . وبسبب هذه التصرفات التي عامل بها الأئمين أخاه المأمون أو التي عامل بها الفضل بن الربيع ولي عهد الخلافة — استوحش المأمون ، واستحسنت وحشته ، وعلم مذهب أخيه فيه ، وأخذ في أهبة التحرز منه .

استوثق الأمر لمحمد الأئمين ، فأخذ الفضل بن الربيع يزين له خلع المأمون ، فلما أجمع على ذلك بتأثير الفضل له ، لم يسمع النصيحة من مناصحيه ، واعتقد أن الرشيد أخطأ في جعل ولاية العهد للمأمون ثم القاسم من بعده ؛ وكل من حاول صرفه عن هذا الأمر أو تأجيله ، وتذكيره بوعده أبيه — نهره . واستعظم المخلصون للخلافة أن يقع من الأئمين ذلك ، مع ما وكده من البيعة ، وتوثق في عهده عند خاصته وعامته .

وكان الأئمين يرى أن ذلك كان فلتة من فلتات الرشيد ، وخطأ من رأيه شبه عليه فيه جعفر بن يحيى بسبحه ، فغرس لهم غرس مكروه لا بد من قطعه

والذى يرى غير ذلك رأى ، هو فى اعتقاده رجل مهذار ليس بذى رأى مصيب ؛ ولكن رأى إلى الشيخ الموفق ، والوزير الناصح : الفضل بن الربيع . إذن لابد من خلع المأمون وأخيه ، ولابد من البيعة للناطق بالحق ابن الأمين ولذلك كتب الفضل بن الربيع بذلك إلى العمال ، وينهى عن الدعاء لهما على المنابر ، ويرسل من يسرق الكتب اللذين كان الرشيد علمهما فى بيت الله الحرام بالبيعة ، ويمزقهما ، فيستوحش الناس من الأمين ومستشاره الفضل ، ويغضب المأمون ، ثم تقوم بينهما حرب يقتل فيها قواد الأمين ، وتضطرب الأمور فى يد الفضل بن الربيع ، فيحاول أن يلقى التبعة ، على الأمين نفسه ، ويحدث نفسه يوما فى صحن داره ، ويقول عن الأمين : ينام نوم الظربان ، وينتبه انتباه الذئب ، همه بطنه ، لا يذكر زوال نعمة ، ولا يروى فى إمضاء رأى ؛ قد شغله كأسه ولهو عن مصلحته ، والأيام توضع فى هلاكه . ثم باتى ببعض خلصائه ، ويستنجد بهم ، ويقول لهم : إنما نحن شعب من أصل إن قوى قوينا وإن ضعف ضعفنا ، وإن هذا الرجل (يعنى الأمين) قد ألقى بيده إلقاء الأمة الوكعاء ، يشاور النساء ، ويخلد إلى الرؤيا ، وهو يتوقع الظفر ، ويتمنى عقب الأيام ، والحتف أسرع إليه من السيل إلى قيعان الرمل ، وقد خشيت والله أن نهلك لهلاكه ، ونعطب لعطبه . ثم يغرى أسد بن يزيد بن مزيد بالمأمون ، ويرجوه أن يقود له الجيوش بعد قتل على بن عيسى ، ويفزع إليه فى لقاء طاهر ابن الحسين ؛ لأنه صادق الطاعة ، فاضل النصيحة ، ميمون النقيبة ، شديد البأس ؛ ولكن أسدا يشتط عاياه ، فيما يلتمسه من الأموال والعتاد والرجال والسلاح ، فيغضب الفضل ويصير به إلى محمد الأمين ، ثم يحبسه .

إذن يتذكر الفضل للأمين ، ويتحدث بما فيه من عيوب شخصية وخلقية ، ويسرف فى ذلك ، وهو يعلم أن ذلك ليس من الحنكة السياسية ، ولكن صدر المرء إذا ضاق بصاحبه جرى ذكر عوراتيه على لسانه من غير أن يقصد إلى

ذلك ، إلا أن الفضل يعرف أن فشل سياسة الأمين فشل سياسته ، وأن نصرة المأمون خذلان له ، وعاقبتها وبال عليه ؛ ولذلك تراه يحاول أن يصد جيوش المأمون عن بغداد ، ويحاول أن يجمع الناس حول الأمين ؛ وإذا شئت تعبيراً أدق وأصرح ، قلنا يحاول أن يجمع الناس حوله ؛ لأن الأمور كلها أصبحت مزمومة في يديه ، وكان يجرؤ أن ينكر على خليفته ما يراه فيه من خروج عن الحد الذي تقف عنده هيبة الخلافة ، وتبتذل إذا تخطته — حكوا أنه عزم يوماً على الاصطباح وأحضر ندماءه والمغنين ، وصفت الموائد ، فلما ابتدأ ليأكل دخل عليه إسماعيل بن صبيح فقال : يا أمير المؤمنين ، هذا هو اليوم الذي وعدتني فيه أن تنظر في أعمال الخراج والضيايع . وجماعات العمال ، وقد اجتمعت على أعمال مندسنة لم تنظر في شيء منها ، ولم تأمر فيها ، وفي هذا دخول خلل في الأعمال . فقال له : إن اصطباحي لا يحول بيني وبين النظر ، وفي مجلسي من لا أنقبض عنه من عمي وبنى عمي وإخوتي ، وهم أهل هذه النعمة التي يجب أن تحاط ، فأحضر ما تريد عرضه فاعرضه علي وأنا آكل ؛ لا أقدم إليك فيه بما تحتاج إليه إلى أن يرفع الطعام ثم أتم النظر فيما يبقى ، ولا أسمع سماعاً أو أبرم الباقي وأفرغ منه . وإذا كان يحضر كتاب الدواوين بأكثر ما في دواوينهم ويقبل إسماعيل يقرأ عليهم والأمين يأمر وينهى بأحسن نهى وأشد ، وكان يشاور من حوله في الشيء بعد الشيء ، حتى إذا انتهى من طعامه دعا بنبيذ فشرب ثم شرب ، وكان الفضل بن الربيع حاضراً فليحق الأمين وشق ثوبه بين يديه ، ورفع صوته يقول : الله ، الله أعدل من أن يرضى أن يكون مدبر أمور أمة نبيه محمد ﷺ من هذه أفعاله . فضحك الأمين ولم ينكر على الفضل ما قال « الوزراء والكتاب ص ٤٥ »

هذه القصة وأشباهاها مما يدل على مجون واستخفاف ، يرويها المؤرخون ، ولا ينكرونها أو يثبتونها بتحقيق أو تدقيق ، ونحن وإن كنا نقرؤها فيما نقرأ

من كتب التاريخ والأدب ، فإنه يعز علينا أن ننسب مثلها إلى خلفاء المسلمين في تلك العصور المتقدمة والإسلام مازال في عنفوانه .

مثل تلك الأقاصيص التي نعتقد أنها موضوعة أو مبالغ فيها حبكها الكسريون ، أو الذين ينتسبون إلى أحزاب هواها في غير الأمين : من المأمونين أو الطالبيين أو غيرهم ، إلا أنها مع ذلك تدل على ما كان للفضل من جرأة على الأمين في مخاطبته . ولعل الكثيرين يعرفون قصة ملاعبة الأمين والفضل بالترد التي قر فيها الأمين الفضل وأخذ منه خاتمه ، فإن قصة الخاتم انتهت بغضب الفضل الذي لم يتمالك نفسه وقال : إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . هذا خاتم وزيرك ، يختم به على جميع الآفاق . إلى أن قال : والله ما بغيت من هتك نفسك عند أوليائك ، والمنافقين لك والمطرحين ببغضك شيئاً ، إلا وقد أنبتته ، وما يضر ذلك الفضل ولا الربيع ، والله المستعان . فالفضل يغضب ويحتد على خليفته ويكلمه كلاماً شديداً . والأمين لا يزيد على أن ينظر إليه ، ويضحك له !!

وكان الفضل على عادة غيره من وزراء الأعاجم ، مبسوط اليد كثير النوال مقرباً للشعراء ، يملأ جيوبهم بالبدر ، فتنتطق ألسنتهم بالمدح ؛ ومن مدحوه أبو نواس وأبو العتاهية وغيرهما . ومن قول أبي نواس فيه :

أنت يا بن الربيع علمتني الخير وعودتني والخير عادة
وقوله :

مأمن يد في الناس واحدة كيد أبو العباس مولاها
نام الكرام على مضاجعهم وسرى إلى نفسي فأحياها
ومن مدحه إسحق بن إبراهيم ، قال :

مد لك الله الحياة مداً حتى يكون ابنك هذا جداً

مؤزراً بمجده مردى ثم يفدى مثلاً تفدى

أشبه منك سنة وخدا وشيا مرضية ومجداً (١)

كأنه أنت إذا تبدى شمائل محمودة وقد

وغنى له إسحق بن إبراهيم الموصلى ، وعلوية ومخارق .

وحدث حبيب بن الجهن النجدى أنه حضر الفضل بن الربيع متنجزاً

جائزته. فرأى عوناً حاجب الفضل يخبر أن أبا العتاهية بالباب، فلم يأذن له خشية

أن يمنعه من الركوب وكان قد تهيأ له ، فلما علم أبو العتاهية أن الوزير على الركب

أخرج من كفه نعلين عالياً شراك وأهداها إلى الفضل فقرأ حبيب الكتاب

المكتوب على الشراك فإذا هو :

نعل بعثت بها ليلبسها قدم بها يمشى إلى المجد

لو كان يصلح أن أشركها خدى جعلت شراكها خدى

فأعجب الشعر الفضل وحمله معه إلى الأمين وقرأه عليه ، فوهب لأبي العتاهية

عشرة آلاف درهم .

ساعات حال بغداد وانفل الناس عن الأمن ، وساءت مقالاتهم فيه ، وفي

وزيره الفضل بن الربيع ، وتمزقت الأموال التي كانت في يده ، وتقدمت

جيوش المأمون فلم يطق الفضل صبرا على البقاء في بغداد واختفى سنة ١٩٦ هـ

وكان يظهر في بعض الفتن التي تقوم ضد المأمون ، فإذا أخذت الفتنة أو كادت

عاود اختفائه . وأراد بعض أصدقائه أن يحفظوا عليه داره ، ويرعوا حرمة

أهله وولده فسنا كنوهم في بيته ، وأعانوهم بالمال ، ودفعوا عنهم بقوة السلطان

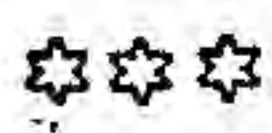
حتى إذا ظهر الفضل ، وأمنه المأمون ، رد عليه داره ، واعتزل هو ومن بقي

من البرامكة ميادين السياسة ، واكتفوا بأن يعيشوا كما يعيش الناس . ومع

(١) السنة : الوجه لصقالته وملاسته ، أو هي الجهة والجينان .

ذلك فإن الأحداث التي نزلت بهم لم تطهر قلوبهم من غل الحقد، ولم تطلتها من أسار الكراهية، فظل كل منهم في مكانه بالنسبة لآخيه، وإن كانت دائرة الكيد والفساد قد ضاقت؛ لأنهم أصبحوا لا يتنافسون على حكم ولا يتزلفون لسلطان. وإن المحاورة التي جرت بين علوية وإسحق بن إبراهيم الموصل في مجلس الفضل بن الربيع، لتعرفك ما بقي لهم من المنزلة في نفوس الناس بالرغم من بعدهم عن السلطان، ونعيم الحكم أو جحيمه.

حدث صاحب الأغاني في الجزء الخامس ص ٣٠٦ على لسان أحمد بن يحيى المكي، قال: «دعاني الفضل بن الربيع، ودعا علوية ومخارقا، وذلك في أيام المأمون بعد رجوعه ورضاه عنه، إلا أن حاله كانت ناقصة متضعضة، فلما اجتمعنا عنده كتب إلى إسحق الموصل يسأله أن يصير إليه، ويعلمه الحال في اجتماعنا عنده» فأبطأ إسحق عليهم، ثم وافاهم ومعه غلامه يحمل قطر ميز نبيذ ليشرّب منه فلما نقد لعلوية غناؤه عتب عليه علوية تأخره عن مباكرة الفضل، وإحضار شرابه معه ترفعا عن شراب الفضل، ثم قال له: «أما والله لو الفضل بن يحيى أو أخوه جعفر دعاك إلى مثل مادعاك إليه الأمير — بل بعض أتباعهم — لبادرت وباكرت وما تأخرت ولا اعتذرت» اه ص ٣٠٧ من المصدر نفسه. فأنت ترى أن علوية يعتب على إسحق ويعنفه، ويوازن بين طاعته للفضل وطاعته للبرمكيين؛ وهذا يدل على أن كلا منهما كان مازال ينظر إلى الآخر نظر المغيظ المحقق مع أن دولتهم جميعا قد دالت.



فلما انحطت منزلة الفضل في دار المأمون وفي نفوس الناس، كانت تعود إليه ذكرى أيامه الأولى، فكان يتمثل كثيرا بقول أبي العتاهية:

ما الناس إلا للكثير المال أو لمسلط مادام في سلطانه
فإذا الزمان رماه ببلية كان الثقات هناك من أعوانه

ولو أنه أخلص النصيح للأمين، ولم يزين له خلع أخويه من الخلافة،
ولم يعكر ما بينه وبينهما، وترك الأمور تجري في الحدود التي رسمها الرشيد،
ورعى حرمة ولاية العهد، وجرى على رغبة الرعية — لو أنه فعل ذلك كله
لتغير وجه التاريخ الإسلامي في تلك الحقبة من الزمان، ولما كانت نهاية الأمين
تلك النهاية السيئة التي تعد وصمة في جبين التاريخ الإسلامي.

ولكننا نرجع ونقول: العبد يريد، والله يريد. ولا يكون إلا ما يريد

الله ؟

محمد أحمد محمد برانق
بالمدرسة الإبراهيمية

في الأدب الانجليزي الحديث

الراحة

بقلم

ألدوس هكسلي ALDOUS HUXLEY

« لكل قارئ ذوقه الأدبي الخاص الذي يسبق به ما يقرأ من شعر أو نثر، وله حكمه العقل الذي يحكم به على الأدباء وإنتاجهم، متأثراً بتربيته وبيئته ومقدار اطلاعه على أدب لغته والآداب الأخرى، ومن أجل هذا أراي أفضل أن أترك الحكم على الكاتب أو الشاعر الذي أترجم له ليكون القارئ في حل من إصدار حكمه على آراء الكاتب أو أسلوبه أو تجديدده في الفكرة، أو مدى انتفاعه وتأثره بغيره من الأدباء. ومن أجل هذا اقتصر في ترجمتي « ألدوس هكسلي » على القدر الضروري الذي يعرف القارئ به، ثم ترجمت له هذا المقال عن الراحة ليجد فرصة يطلع فيها على تفكير كاتب من مشاهير كتاب الانجليز في القرن العشرين »

عبد الرزاق حميد

أرى من الخير قبل أن أعرض هذا المقال على القراء أن أعرفهم بكاتبه العريق النسب في الأدب الإنجليزي .

فهو ألدوس هكسلي بن ليونارد هكسلي من كتاب التراجم المشهورين .
وجده توماس هكسلي العالم الأديب ذائع الصيت في العصر الفكتوري . وأمه قريبة ماثيو آرنلد . وخالته مسز همفري وود الكاتبة القصصية ، فليس من الغريب بعد هذا أن يهب هذا الكاتب حياته للأدب في مختلف نواحيه .

ولد في سنة ١٨٩٤ وتلقى دروسه الأولى في كلية إيتون الخاصة بأبناء الأعيان الإنجليز، وكان يريد أن يدرس الطب لولا أن أصابه عمى مؤقت منعه من الاستمرار في الدراسة. فانتقل إلى أكسفورد، ودرس الأدب الإنجليزي ونال الدرجة فيه .

وفي سنة ١٩١٦ انضم إلى مجلة المحررين والكتاب في مجلة « شعر أكسفورد Oxford Poetry » ويقول عن نفسه : « قضيت السنتين الأوليين من الحرب في أكسفورد ، وقضيت ما بقى منها في قطع الأشجار ، والعمل في وظيفة حكومية بقدر ما سمح لي نظري ، وفي التعليم في مدرسة » واشتغل بعد ذلك محرراً في جريدة وناقداً مسرحياً لجريدة وستمنستر « Westminster Gazette » وكتب في أثناء ذلك مقالات وقصصاً صغيرة . وقد لمع نجمه حوالي ١٩٢١ ونشر أول مجموعة من مقالاته سنة ١٩٢٣ تحت عنوان « على الهامش » . وأهم كتبه هو « الدنيا الجديدة الجريئة » . وقد شغل نفسه في الأيام الأخيرة بطبع خطابات د . هـ . لورنس .

أما هو فطويل نحيل ، قوى الإحساس ، دائم الحركة ، أديب كثير الإنتاج ، وهبه الله قدرة عظيمة على التهمك عظيمة ، ويعيش في إيطاليا الآن ، ولا يزور باريس أو لندن إلا لماماً .

أما المقال الذي كتبه عن الراحة ، وهو حديث اليوم فهو :

« الراحة أو الظاهرة الجديدة » ويسمونها أصحاب الفنادق من الفرنسيين « الراحة الحديثة » وهم على حق في هذه التسمية ، لأن الراحة حديثة النشأة ، أصغر سناً من البخار وكانت طفلة عند ما ولد البرق ، ولا تكبر المذيع إلا بحيل . وإن اختراع وسائل الراحة وتتبعها ، واعتبارها غاية يسعى إليها ، ظواهر حديثة لا نظير لها في التاريخ منذ عهد الرومان

وقد كانت شدة الصلة بيننا وبين هذه الظواهر سبباً في أن نتقبلها بقبول

حسن ، وألا نعبأ بما فيها من غرابة ، ولا جدة . ولا نهتم بما لها من قيمة .
فالكرسی اللين ، والفراش الناعم والأرائك . والتدفئة بأنايب الماء الساخن ،
والحمامات الساخنة ، وغيرها من وسائل الراحة يعرفها ويتمتع بها كثير
من الطبقة الوسطى ، ولم يكن يعرفها الملوك والباطرة من ثلثمائة عام .
وأول ما يلفت النظر في الشقاء الذي عاش فيه أجدادنا أنه كان إلى حد كبير
اختياريا .

وإذا كان بعض وسائل الراحة الحديثة جديد الاختراع كإطارات
العجلات من المطاط التي لم تعرف قبل اكتشاف أمريكا الجنوبية ونبات
المطاط ، فإن كثيراً من المواد الأولية التي استخدمها الحديثون لجلب الراحة
ليست جديدة . وقد كان في قدرة الناس أن يصنعوا الأرائك ، وكراسي
حجرات التدخين ، وكان في استطاعتهم أن يوسعوا الحمامات وأن يدفعوا
بيوتهم بالماء الساخن يجرى في الأنايب إلى حجرات المنازل عاليها وسافلها ،
وأن ينشئوا أقساما للنظافة العامة ويصلوا بيوتهم بها في أي زمن من الثلاثين
أو الأربعين قرنا الماضية ، وقد كانت هناك محاولات كهذه ، واستطاع بعض
الناس أن يستمتعوا بهذه الوسائل أحيانا . ومن هؤلاء الرومان الذين اهتموا
إلى التدفئة بوساطة الهواء ، واشتملت حماماتهم الخاصة على أدوات للاستحمام
لا تصل إلى التفكير فيها أحلام القرن العشرين . فكانت هناك حجرات تسيل
العرق ، وحجرات للتدليك ، وحجرات للتجفيف ، وأرائك للراحة بعد الحمام .
وأما الحمامات العامة فكانت فخمة جداً حتى قال « سنكا » : « لقد وصلنا في
الكاليات إلى درجة عظيمة ، وأصبح الواحد منا لا يرضى إلا أن يمشى في
حمامه على لآلئ » . وأما مساحة الحمام الواحد فكانت كبيرة جداً تناسب مع
عظمتها وزينتها ، حتى إن حجرة واحدة في حمام من حمامات الإمبراطور
ديوكتيان (٢٨٤ - ٣٠٥ م) كانت كافية لبناء كنيسة كبيرة مكانها .

ومن السهل أن نضرب غير هذه الأمثال للدلالة على أنه كان من المستطاع أن يجعل آباؤنا حياتهم مريحة بما كان عندهم من وسائل محدودة للراحة ، وإذا كان أهل العصور الوسطى والذين عاشوا في أوائل العصور الحديثة قد اختاروا حياة تاعسة لا راحة فيها ، فذلك لأنهم قد فضلوا حياة التعب على غيرها ، ولأن القذارة والتعب قد ناسبا مبادئهم وتعصبهم السياسي والخلقى والدينى

الراحة والحياة الروحية .

ولكن هل هناك علاقة بين الراحة والنظافة ، وبين السياسة والأخلاق والدين ؟

قد نقول - إذا لم ننعم النظر - إنه لا يحتمل أن تكون هناك علاقة بين الكراسى الوثيرة والديمقراطية . ولا بين الأرائك وانحلال نظام الأسرة . ولا بين الحمامات الساخنة وانحطاط الطهارة المسيحية . ولكن النظر الدقيق يهديننا إلى قوة الصلة بين نمو وسائل الراحة فى العصر الحديث ، وبين تطور الأفكار ، وأرجو أن أوفق فى هذا المقال إلى بيان هذه الصلة ، وأن أوضح السبب الذى جعل من المستحيل على الأمراء الإيطاليين فى القرن الخامس عشر ، وعلى عصر إليزابيث ، ولويس الرابع عشر ، أن يعيشوا فى مثل النظافة والحياء اللذين كان يتمتع بهما الرومان ، وأن يستمتعوا بما نراه اليوم ضروريا لنا .

ولنبداً بالكراسى المريحة والتدفئة بأنايب الماء الساخن فنقول: إنها أصبحت ممكنة بعد القضاء على نفوذ الملوك ورؤساء الإقطاع ، وانحطاط السلطان المقدس الذى كان لرب الأسرة على أفرادها ، وللكبير فيها على الصغير ، ومن الممكن الآن أن يستلقى الشخص على كراسى حجرة التدخين ، وعلى الأرائك . وليس

الاستلقاء الآن من وسائل العظمة ، ولا دلائل الاحترام . وإذا أردنا إهانة شخص أقل منا فلا يكون ذلك بالاضطجاع في كرسينا حتى تحاذى رءوسنا أرجلنا . بل يكون ذلك بالاعتدال في المجلس وتكلف العظمة . وإذا أردنا أن نظهر الأدب لسيدة أو الاحترام لعجوز أو شخص مهم اعتدلنا في مجلسنا أو وقفنا .

وفي القديم كانت الجماعة الإنسانية محكومة بقوانين مقدسة، وكان على كل شخص فيها أن يبدو أمام من هم أقل منه عظيم الشخصية ، ومؤدبا أمام من هم أعلى منه منزلة . وكان من المستحيل في مثل هذه الجماعة أن يتمتع المرء بحريته في الجلوس كما نستمتع اليوم .

ولم يكن من الممكن للويس الرابع عشر مثلاً أن يستمتع بحرية تامة في مجلسه أمام رجال البلاط كما كان من المستحيل عليهم ذلك في حضرته . ولم يكن يسمح لنفسه بهذه الحرية على ملاء من الناس إلا إذا حضر مجلس البرلمان ، فكان يستلقي على ظهره في « كرسى العدل » بينما يجلس الأمراء ، ويقف كبار الضباط ، ويركع الصغار منهم ، وكانت الراحة ميزة خاصة بالملك ، وله وحده الحق في أن يمد رجله إذا شاء . ومن المؤكد أنه كان يمد يدهما بطريقة ملكية خاصة . ولم يكن التحلل من القيود إلا بقدر . وإذا جلس الملك فجلسه على شكل خاص وفي مكان مرتفع . وكان على رجال البلاط أن يبدوا في شكل آخر . وإذا جاز لبعض ذوى الدم الأزرق منهم أن يجلسوا فليجلسوا على دكة .

وما كان يجري في قصور الملوك كان يجري نظيره في قصور الأعيان ، وكان للوالدين في محيط الأسرة حكم الأمراء أو البابوات . فهم ملوك يحكمون بالحق الإلهي . والأبناء هم الرعية . وقد أخذوا الوصية الخامسة في أيديهم بجد . حتى إن غلاماً قتل علناً لاعتدائه على والديه في أيام سيادة قوانين كلن في جنيف .

ومع أن استلقاء الطفل في كرسية لم يكن من الكبائر إلا أنه كان عملاً لا يدل على الاحترام، وكان عقابه الجلد والجوع والسجن. حتى إن « جونزاجا » أحد حكام مانتوا في إيطاليا، ركل ابنة فقضى عليه لأنه نسي أن يلبس قبعته، وهو يحيي أباه. ولا ندرى ما عقابه لو أنه لم يجلس معتدلاً في كرسية. وإذا كان محرماً على الأطفال أن يجلسوا مستلقين على كراسيهم، فقد كان ذلك محرماً على الآباء كذلك خشية أن تنحط قيمتهم في أعين أولادهم، ومن هذا ترى أنه كان من المستحيل في الجماعات الأوروبية منذ قرنين أو ثلاثة أن يستلقي إنسان في كرسية بحضرة أى إنسان آخر. وكان فراش البيت متمشياً مع هذه النظم والقوانين التي تحكم بها الجماعة في تلك الأزمان، وكان في مقدور صناع الأثاث أن يجعلوا الكراسى مريحة والأرائك مماثلة لأرائك اليوم، ولكن نظام الجماعة باعد بينهم وبين التفكير في هذا.

ولم يصبح الكرسي عام الاستعمال إلا في القرن السادس عشر وكان من قبله رمزا للسلطان.

ورجال البرلمان الآن وأعضاء اللجان يستريحون في مجالسهم ويستلقون في كراسيهم، ولكن السلطة مازالت للجالس في الكرسي أو الرئيس (Chairman)، وكانت في القرون الوسطى للعطاء فقط. فإذا سافر عظيم منهم أخذ معه كرسية لئلا يظهر لحظة واحدة بعيداً عن مظهر سلطته وعزته. وما زال للعرش ما للتاج من قوة الرمز إلى السلطان.

ولما جاءت النهضة وظهر العصاميون الأغنياء ظهرت معهم الكراسى، وابتدأت تكون حقاً لغير العظاميين. ولكن الجلوس فيها كان مقيداً بقيود تجعلها غير مريحة. وكان شكل الكراسى في القرن السادس عشر أشبه بالعروش، حتى أغرت الجالسين فيها فتكفوا العظمة. ولما جاء القرن الثامن عشر انحلت قيود النظام الاجتماعي المقدس. وعند ذلك أخذ الأثاث

المنزلى يكاد يكون مريحا . وحتى فى ذلك الوقت لم يكن الاستلقاء على الكراسى مسموحا به . ولم تعرف الكراسى المريحة والأرائك التى يستطيع أن يستلقى الإنسان فيها أو يجلس مضطجعا ويهز رجله إلا بعد أن رسخت أقدام الديمقراطية ، وغنيت الطبقة الوسطى ، وتحررت المرأة ، وانحلت قيود الأسرة القديمة .

الترفُّة بأنابيب المياه الساخنة ونظام الرفطاع :

هناك عامل آخر فى الراحة الحديثة هو تدفئة المنازل ، وقد كان مستحيلا على حكام الأراضى على الأقل بسبب النظام السياسى للجماعات فى القديم . وكان الدهماء أكثر حظا فى هذا من العظماء ، إذ كان من السهل تدفئة البيوت الصغيرة ، أما العظماء والأمراء والأسقف الأعظم والملك نفسه فقد كانوا يعيشون فى قصور عظيمة تتناسب مع مركزهم الاجتماعى ، وليبرهنوا عل أنهم أعظم من غيرهم كانوا يستقبلون ضيوفهم فى أبهاء فسيحة جدا ويمشون فى مواكب مهيبه فى هذه الأبهاء التى تشبه أنفاق جبال الألب طولا وهواء ، أو يصعدون وينزلون سلالم تشبه جنادل النيل لو كانت من الرخام . وكان العظيم فى ذلك الوقت ينفق معظم وقته فى إقامة حفلات نفخمة ، ويحجى ليلات عظيمة تحتاج إلى حجرات كثيرة من أجل الممثلين والمدعوين ، وذلك يدلنا على ما كانت عليه الحجرات من سعة فى هذه القصور الفخمة ، فقد كان يصل بعضها إلى مائة قدم طولا وثلاثين ارتفاعا . ما أعظمها وأنخمها ! ولكن ما أبردها ! ولا تصور أن يفكر فى بناء مثلها أى عصامى من رجال المال فى العصر الحديث ، الذين يضحون بالعظمة فى سبيل الراحة .

وكان أصحاب تلك القصور يضطرون فى ليالى الاحتفالات أن يجلسوا ساعات طوالا يرقبون التمثيل فى حجرات باردة ، تصفر رياحها ، وتعصف فى جوانبها تيارات قوية من الهواء .

ولقد عشت في إيطاليا في قصر من هذه القصور ، وأذكر أن حجرات النوم فيها تصلح صالات للرقص ، وحجرات الجلوس أشبه بمحاط سكك الحديد ، وأما السلام فتسمح لعدد من السيارات الكبيرة أن يمشى بعضه بحذاء بعض . ولكن الريح العقيم التي تهب من جبال « أبناين » تجعلها لا تطاق .

الحمامات والأفهام

إننا لمدينون بالعاملين السالفين من عوامل الراحة إلى ضعف الملكية والارستقراطية ونظام الجماعات . والعامل الثالث من هذه العوامل هو الحمامات ، وترجع العناية به إلى ضعف الأخلاق المسيحية . مازالت مدارس الأديرة منتشرة في أوربا وفيها يتعلم البنات أن الأجسام الإنسانية أشياء دنسة . وأن النظر إليها خطيئة للأجانب ولأصحابها على السواء . وعلى هذا فلا بد لمن أن يستترن أجسامهن وقت الاستحمام بقمصان تصل إلى ماتحت الركبة . وقد تعلمن طريقة خاصة في لبسهن . لا تسمح أن يظهر منها إلا قليل . وهذه المدارس غريبة الآن لحسن الحظ . ولكنها كانت ذات نفوذ عظيم في الماضي القريب والبعيد . وكانت تخضع لتعاليم الكنيسة التي تقول بتضحية الجسم كلية ، وظلت هذه التعاليم سائدة من عهد القديس أنتوني والقسيسين الذين كانوا لا يستحمون ويجوعون ويكفون عن شهوات بطونهم وفروجهم إلى العهد الحاضر ، ويرجع تمتع النسوة الآن بالاستحمام الكثير إلى ضعف هذه التقاليد .

لم يكن المسيحيون الأولون يهتمون بالاستحمام ، ومن العدل أن نقرر أن تحمس المسيحية للروح ضد الجسم لم يكن معاديا خلال الأزمان كلها للنظافة ، وقد كان من الطبيعي أن يعارض آباء الكنيسة الأولون الطريقة الرومانية المزعجة في الاستحمام لاختلاط الجنس فيها . ولكن المعتدلين منهم قد سمحوا بالاستحمام أحيانا مادام الحياء ملحوظا . ولقد كان القضاة على الحمامات

الرومانية العظيمة ناشئا من معارضة الرهبانية المسيحية ، كما كان بسبب إتلاف البرابرة لها . ونشط الاستحمام في « عصور الإيمان » وعاد الصليبيون من الشرق بنظام حمامات البخار التي أصبحت محبوبة في كل أنحاء أوروبا بعد ذلك ، ولكنها فقدت مركزها لسبب لا يعرف . وأصبح الرجال والنساء في القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر أشبه في القذارة بآبائهم البرابرة . ولعل النظرية الطبية عندهم ، وتقاليد البلاط كانت مسئولة عن هذا التذبذب . ومن الملاحظ أن التحريم الديني يكون قويا دائما في كل ما يتعلق بالنساء ، ويخبرنا جنكور Goncourts من مؤرخي القرن التاسع عشر أن قلة الحياء وضعف الأخلاق في النساء يرجعان إلى كثرة الاستحمام بينهن في أيام الإمبراطورية الثانية وكانت نتيجة ذلك أن « على البنات أن يقللن من الاستحمام » وإن سيدات اليوم اللاتي يتمتعن بحظهن من النظافة لمدينت : لفولتير لتهكمه وسخريته من التحكمات التي لا أصل لها من العقل . وللماديين من علماء القرن التاسع عشر . ولولم يوجد هؤلاء الرجال للقضاء على مدارس الأديرة لبقيت عند بناتنا من الحياء والقذارة ما كان عند جداتهن .

الراهة والطب :

يرجع الفضل الآن للأطباء في انتشار الحمامات وشيوع الاستحمام ؛ فإن اكتشاف الجراثيم جعل للنظافة مركزا ممتازا ، وقيمة مختلفة عن قيمتها القديمة . فنحن نستحم الآن متحمسين للنظافة . وقد أصبح للحمامات الآن قوة سحرية تحفظنا من قوى الشر التي تلبس ثياب الجراثيم ، ونحن نتنبأ بأن هذا الدين الطبي الجديد سيقضي على التقاليد المسيحية الخاصة بالجسم وإهماله . ومنذ وصلنا إلى فائدة ضوء الشمس للأجسام أصبح الإكثار من الملابس جريمة طبية . وأصبحت قلة الحياء فضيلة . وقد يصبح العري في القريب أمرا شائعا ، وتكون هذه آخر مرحلة في جعل الملابس مريحة ، وقد وصل

إليها الآن كثير من الرجال والنساء .

لقد كتب فلتشر Fletcher يصف زيارة جلادستون لـ "كسفورد" ، قبل موته بقليل فقال: إنه لم يرض عن ملابس الطلبة هناك لخصها ، ولتبدلهم فيها . وقال: إن ملابس الشبان في أيامه كانت غالية ، يصل الواحد منها إلى مائة جنيه بما عليه من جواهر . وكان لكل شاب سروال مكوى يحافظ عليه . وكانت زيارة جلادستون أيام أن كان الطلبة لا يزالون يلبسون « ياقات عالية منشأة ، وقبعات مقواة » ولا يمكن أن نتخيل ما كان يقوله لو رآهم الآن بقمصانهم المفتوحة ، وسراويلهم الواسعة . والآن قد وصل التحلل من القيود إلى درجة لم يصل إليها أحد من قبل . فالرجل الآن لا يتقيد بالرسميات في اللباس إلا في القليل النادر .

أما العقبات في سبيل راحة النساء فقد كانت سياسية وخلقية . وكان عليهن أن يرعين التقاليد الاجتماعية والدينية معا . وبقين يرزحن تحت قيود التقاليد زمنا طويلا باسم الحياء بعد تحلل الرجال منها ، ولما جاءت الحرب وقمن بنصيبيهن فيها وجدن طبيعة العمل والراحة تقضي بالخلاص من قيود الحياء القديم . فضحين بالحياء وبانت لهن فضائل هذه التضحية بقيدين بعيدات عن هذه القيود ، لتستفيد جسومهن وتزيد راحتهم ، وطرأ الملبس في الحديث من أكثر الطرز راحة لهن ، حتى من ملابس الإغريق .

الراحة غاية في ذاتها :

أصبح طلب الراحة لذاتها الآن سببا من أسباب انتشارها ، وقد أصبحت ممكنة بسبب التغيرات التي طرأت على فلسفة الحياة وهي الآن « مودة » جديدة ، وعادة طبيعية ومثال أعلى يقصد إليه الناس لذاته ، وكلما زادت الراحة في هذه الحياة زادت قيمتها . وألم التعب الآن كبير جدا للذين عرفوا طعم الراحة . ومع ذلك « فالمودة » التي تقلل من أهمية الراحة الآن « مودة » شائعة قوية . والرغبات المادية الكثيرة الآن مرتبطة بوسائل

الراحة . وصناعة الأثاث ، وآلات التدفئة . والأعمال الصحية في المنازل لا تساعد على موت حب الناس للراحة . فهناك على العكس من ذلك — في وسائل الإعلان الحديثة عن هذه الوسائل ما يساعد على نمو هذا الحب وازدهاره .

وقد ذكرت الآن الأسباب الروحية التي أدت إلى الراحة في العصور الحديثة باختصار . ولأقل كلمات قليلة عن آثارها :

لا يمكن للإنسان أن يأخذ من غير أن يعطى ، وإن الوصول إلى الراحة يقابله خسارة أشياء أخرى قيمة ، فالذى يبني بيتا الآن يهتم كل الاهتمام بوسائل الراحة في مسكنه المستقبل ، وينفق عليه مالا كثيرا في آلات التدفئة ، والحمامات ، والفراش الناعم الوثير وما أشبه ذلك ، وبذلك يصبح البيت في نظره تاما .

والذى ينفقه صاحب البيت الآن على بيته في الأدوات الصحية والتدفئة بأنايب الماء الساخن ، كان ينفق في الأيام الخالية على سلام الرخام ، ووجه المنزل ، والصور الطبيعية على جدران الحجرات ، وتذهيب هذه الجدر ، وعلى الصور والتماثيل ، وكان البابوات في القرن السادس عشر يعيشون في شقاء وتعبد منزلي ، لا يسمح لنفسه به الآن مدير مصرف صغير .

ولكن هؤلاء البابوات كانوا يتمتعون بالصور الطبيعية على الجدر يرسمها رفايل ، وصوامع بينها سيستيني (Sistine) . ولكن أنزثي لهم لخلو الفاتيكان من الحمامات والأنايب الساخنة الماء ، وكراسي حجرات التدخين ؟ أننى أميل إلى القول بأننا الآن نبالغ في حب الراحة ، ولقد عشت في بيوت كالتى عاش فيها آبائى من السكسونيين . وكنت سعيدا مع خلوهام من كل وسائل الراحة التى يراها قومي الآن ضرورية ، والشرقيون وسكان جنوب أوربا يعيشون سعداء في بيوت لا تعرف وسائل الراحة التى تتمتع بها ، ولا

يمنع سعادتهم خلو بيوتهم من هذه الوسائل .

إني رجل قديم وأعتقد في القيم وعديم القيمة من الأشياء ، ولا أستطيع أن أرى للتقدم المادى فضلا إلا إذا خدم الفكر . وأحب الاختراع الذى يقلل العمل ؛ لأنه يقتصد الوقت والقوة فتستخدمهما في العمل العقلى ، (ولكن هناك من الناس من يكره العمل العقلى ، ويفكر في اختراع الوسائل للاقتصاد في العمل العقلى ، كما يفكر في اختراع « ماكينات الخياطة » وفي الآلات الأتوماتيكية لغسل الأواني) وأحب وسائل الانتقال السريعة لأنها توسع الأفق الذى يحد العقل .

وهناك مبررات للراحة عندي ، فهي تسهل الحياة العقلية . والتعب يعوقها . ومن الصعب أن أفكر وأنا أحس ببرد أو صداع . والراحة عندي وسيلة لغاية ، ولكن العصر الحديث يعتبرها غاية في ذاتها وخيرا مطلقا ؟

عبد الرزاق حميد

رحلة طائر

- ١ -

للساعر الأستاذ فايز العمروسى

«ملحمة شعرية في عشرين نشيدا ، ترمز إلى رحلة خيالية ، قام بها طائر حين أشرقت شمس ، ساجدا في فضاء الوجود يتحسس في دياجير رحلته جوانب شتى من جوانب الحياة ، متطلعا إلى الطبيعة الحية في كثير من ألوانها وضروبها ، والطائر في رحلته ، من شمس إلى فجره ، شاعر في حياته النفسية ، وأحاسيسه الوجدانية ، في عهد من عهوده ، مبدؤه هذه الشمس ، ونهايته ذلك الظلام»

في الصباح

راح يسعى بجده المتوالى دائم الكد ، مستمر النضال
يبتغي العيش في جهاد عنيف بين روض الربا وقفر الرمال
كل حي يدب فوق ثراها ويلاقى صعابها لا يبالى
تسأم الأرض من خطاه وتسلو وهو فيها متم ، غير سال
شأن كل ، يرى الحياة جهادا فيضحى لحبها كل غال

طالع الشمس في بكور وأمضى شعلة الضوء طائفا كالخيال
يهبط السهل بين حين ، وآنا يعتلي الجو ضارباً في التلال

يلقط الحب من ثراه ويجرى وهو قاس على البثرى في النزال
ويرود الأزهار، يحسوها لها فيروى صدها عذب الزلال

ويجوب البحار فوق مياه لامعات كلؤلؤ سلسال
وهو في ذلك الفضاء طليق يرسل الصدى بين ریح الشمال
بين سرب الطيور وهي شواد في فسيح الأرجاء مرحى سوالي
يعتلين الغصون أنا ، وأنا يفترشن الكروم تحت الظلال
تجتنى كل ماتحب وتهوى لا تنى عن محرم أو حلال
ليس تدري من الزمان اعتسافاً أو تبالي بمحادثات الليالي
كل شيء ترومه مستباح كان بالأرض، أو بمن الجبال
ذاك سر وحكمة تتجلى تخلق الطير بين وادی الجمال

في الغروب

ومضت جذوة النهار سراعاً وبدأ الأفق في ثياب الحياء
بينما الشمس قد توارت يئوساً كحجب من بحر الجفاء
فل منها الشعاع يخبو رويداً كسقيم أضناه مر الدواء
وتمشى الشعاع فوق الروابي وترامى على ضفاف الماء
وسرى فوق مته يتهدى في دلال وروعة وبهاء
وهفا بالرياض شدو وديع ناعم اللحن في رقيق الغناء

نَغَمَاتُ كخَطَرَةِ الشَّعْرِ تَسْمُو فِي خُلُودِ بَمَرْتَقَى الْعُلْيَاءِ
 بَيْنَ هَذَا الرِّوَاءِ، وَالشَّمْسِ كَالْقَمَرِ مِثْلُ الْجَرِيحِ، الْمَرِيْقِ حُرَّ الدَّمَاءِ
 رَاحَ كُلُّ الْأَنَامِ يَسْعَوْنَ جَهْدًا حَيْثُ يَرْجُونَ رَاحَةً مِنْ عَنَاءِ
 وَعَنَاءِ النَّهَارِ جَدُّ أَلِيمٍ يَزْحَمُ النَّفْسَ مِنْ ضُرُوبِ الشَّقَاءِ
 فَجَمْعُ الطَّيُورِ فِي الْجَوِّ تَسْرَى لَتَرُودَ الْوُكُورَ قَبْلَ الْمَسَاءِ
 وَعَمِيقُ الْحَيَاةِ أَسْبَلَتْ الْجَنَفَ مِثْلَ النَّارِ، وَأَبْدَتْ طَلَائِعَ الْإِصْفَاءِ
 كُلُّ خَلْقٍ سَرَى لِمَاوَى حَوَاهُ فِي هَدْوٍ وَغَبْطَةٍ وَهَنَاءِ
 وَمَضَى كُلُّ سَائِرٍ، ثُمَّ آوَى كُلُّ حَيٍّ يَحْتَثُّ فِي الْأَنْزَوَاءِ
 فَتَرَى كُلَّ كَائِنٍ قَدْ تَوَارَى فِي حِمَاهُ، وَجَدَّ فِي الْإِخْتِفَاءِ

فِي اللَّيْلِ

طَبَّقَ الْأَفَقَ هَجْمَةً مِنْ ظِلَامٍ جَعَلَتْهُ مَغْبَرًا الْأَرْجَاءِ
 وَتَرَاءَى الظَّلَامُ يَبْدُو كَقَبْرِ أَشْعَثَ الْوَجْهِ قَاتِمِ الْأَنْجَاءِ
 فِي سَكُونٍ بِخَفَقِهِ رَهَبَاتٍ تُنْذِرُ الْكَوْنَ بِالْبَلَى وَالْفَنَاءِ

رَفَرَفَ الطَّائِرُ الْغَرِيبُ جَنَاحًا مِثْلَ الْوَجْدِ الْمُسِيرِ فِي الْإِبْطَاءِ
 هَالَهُ الْبَعْدُ عَنْ أَلْفِ حَنُونٍ وَصَغَارَ لَهْنُ حَسَنِ الرِّوَاءِ
 فَانْبَرَى يَقْطَعُ الطَّرِيقَ بِلَهْفٍ يَبْتَغِي الْعِشَّ تَحْتَ ظِلِّ الرِّجَاءِ
 فِي فُضَاءٍ بِحَوْفِهِ خَفَقَاتٌ تُشْعَلُ الْبَرْقُ فِي أَدِيمِ السَّمَاءِ
 وَخِلَاءٌ مُفَرَّقٌ مَتَرَامٍ تُصْفَرُ الرِّيحُ فِيهِ بِالْأَنْوَاءِ

وظلامٍ يَجَنُّ فيه ظلاماً حير الطير في جحيم البلاء

وسرى في ظلامه ينهبُ الجوِّ ويمضي كالسهم في الظلمات
ليس يدري لعشه كان يسرى أم لحثف مسدد الطغيات
كلها حطَّ فوق نجد رفيع يتردى بباطن الحفريات
أو رأى التلَّ يعتليه صعوداً صدمته شدائد العثرات
تترأى له قباب الروابي كأعلى الأشجار في الجنات
فيجد السرى إليها فيلقا م ها صخوراً من الحصى باليات
في الروض

وإذا حطَّ بين أشجار روض يتغنى فيه مكننا لليات
أقلق الطير في حماها فهبت في ضجيج مروّع الصرخات
ظننت الروض قددهته العوادي وأحاطت به جيوش الطغاة
فتعالى الصراخ في كل عش كصراخ الأطفال في الفزعات
ثم هبت تردّ ذاك المعنادي في نواح كما تم النائمات
حز وجه الغصون لطم جناح بجناح يزيد في الضربات
بين قرع وضجة ونحيب واضطراب بأغصن الشجرات
فتخلّى الغريب عن أرض قوم لم يُصادف بها سوى الصدمات
وتخلّى ، وقلبه في خفوق وتولّى يشن في حشرات

فايز الميموني
المدرس بالناصرة

لها بقية ستشر تباعا في الاعداد القادمة

شاعر

للمؤلف محمد عبد الفتى حسن

قام فى الكون مُشرقا وأطلاَّ أتراه أتبعنى السماء محلا ؟
ماله والنضال فى شُعب الأثر ض فقد ضاق بالنضال وملا ؟
ماله والصراع فى حلق الأثر ض وقتل البرىء ظلما وجهلا ؟
ماله والدماء تُهرقُ كلما ء وتشتق بها البلادُ وتبلى ؟
ماله والخصام يأكل قلب الناس بالحقد والضعفة أكلا ؟
ماله والقوى يهزأ بأحق ويرمى الضعيف عسفا ونكلا ؟
ماله والحديد والنار أضحت حاكما فيصلا وقولا فصلا ؟
ماله والوعود صارت ضياعا والمواثيق كلها صرن مطلا ؟
ماله والوعيد يرعد فى الأفق فتهمى السماء سجلا ووبلا ؟
ماله والحياة صارت هجيرا لا يرى القلب فى حواشيه ظلا ؟
ماله والحياة صارت خداعا لا يرى القلب فى دواعيه نبلا ؟
ماله والحياة صارت يابا لا ترى العين فى مراميه أهلا ؟
ماله والنفوس تفعم كيدا ماله والقلوب تطفح غلا ؟
إنه شاعر يثور على الضمير ويأبى الحياة خسفا وذلا
إنه شاعر يعز على القيد ولو كان بالنضار محلى

محمد عبد الفتى حسن

كــــــنــــز الراعي.....

مترجمة عن الانجليزية من كتاب « قصص من كل مكان »

Stories From Everywhere للكاتبة الانجليزية

« رودا پاور » Rhoda power

كان رجلا فقيراً ، وكان يعيش في عهود ملوك إيران الأولين على رعى
الأغنام... لم يكن منزله كهذه المنازل المألوفة المطروقة ، وإنما هو كهف موحش
في أحد تلال إيران ، يأوى إليه كلها خيم الظلام....!

لم يكن كهؤلاء المقبلين على الدنيا ، الظافئين إلى مَتَعِها ومباهجها ، وإنما
كان عازفا عنها على علم بها ، يقتصر منها على ما يمسك الرmq ، ويحبس صوت
الجوع ، ولم يكن له من حطام هذه الدنيا التي عاش فيها بعيداً عنها ، أكثر من
حارس وصديق !

وما ظنك بحارسه...؟ أهو كهؤلاء الحراس الذين يجردون بأرواحهم البريئة
دفاعاً عن متعجرف ظالم كي يسترسل في جبروته؟ كلا ، لم يكن واحداً من هؤلاء
وإنما هو عصاه ..! عصا الراعي المعذر ، تلك التي يتوكأ عليها ، ويهش بها على
غنمه كلها قفل راجعاً من المرعى !

وما ظنك بصديقه أيضاً . . . ؟ أهو من طراز أولئك الأصدقاء الذين
يشقى المرء بمعرفتهم ، ويتعزى بصحبتهم . . . ؟ لا ، لم يكن من هذا الطراز
المألوف وإنما هو — ولا تدهش — « جلد شاة » ! ولم لا يتخذ مثل هذا
الرجل من « جلد شاة » صديقاً يحرص على عودته وألفته؟ أولاً يستدق به
ويتدثر عند النوم؟ أولاً يستتر بالنهار قيصبه الخلاق المهلهل عن أعين الفضوليين

والعابرين من أبناء السبيل ؟ وكان كما نشأ أو شاء أميا . فما تعلم قط كيف يكتب أو يقرأ ولكنه كان بتجاربه أكثر من معلم ! فقد عرف أساليب كل حيوان كاسر يهيم فوق الللال !

تعلم عادات كل حشرة تدب بين بين الأوراق والأعشاب . وأصغى إلى الطيور فألهمته أغانيها المرححة العذبة فرح الحياة ! وراقب السحب والأفلاك ، وتتبع اتجاهات الرياح والأنواء ، حتى أصبح يعرف متى تجود السماء بالمطر اللطيف المرتجى ! لقد كانت الطبيعة أستاذه الملمهم ، أستاذه الذي يتردد عليه ويأخذ عنه لباب المعرفة ، ولهذا كان أعرف بأساليب الطبيعة ، وفهم لغتها من أى إيراني آخر يعيش فى عصره !

كذلك ازداد بصراً بدنيا الرعاة الآخرين وخواطرم ، فقد اعتاد كلما خرج بقطيعه كل يوم إلى المرعى أن يلتقى فى طريقه بأولئك الرعاة ، فيتحدث معهم ، ويتخذ له منهم تمة لقطيعه ، يؤليهم مايوليه من رعاية واهتمام !

تناقل الناس أخبار ذلك الراعى الشيخ ، وترامت إلى سكان المدن المجاورة قصص شتى عن عقله وفطنته ، ومداد رأيه وتجربته ، فطاب لهم أن يروه ، واضطربت فى أعماقهم بواعث الارتجال إليه واثالت الوفود عليه ملتئمسين الرأى فيما يغشاهم ويستبد بهم من جواذب العين ، وتنازع البقاء !

قال فريق منهم عندما رأى الشيخ فى سمته الوداع الساذج :
— أيها الشيخ المبارك ! أنت يا فيلسوف إيران القانع وأعقل من فيها ، لقد فرغنا إليك نلتمس المعونة ، فساعدنا برأيك مما ألم بنا من الشدائد .
إننا أشقياء بما يقوم بيننا وبين جيراننا من غارات وحروب !!

وصاح فريق آخر :

— ماذا نفعل ؟ لقد كنا بالأمس أغنياء ونحن الآن فقراء !!

كيف نستعيد حالتنا الأولى ، وأيامنا السالفة . . . ؟ هل نستطيع . . . ؟
وقاطع هذا الفريق فريق ثالث :

— ونحن . . . ؟ كيف نحارب الطمع فى نفوسنا . . . ؟ لقد كنا بالأمس
فقراء ونحن الآن أغنياء ، والحرص على المال يُشقىنا . . . !
أصغى الراعى إلى ما اضطرب به نفوس كل فريق من ألوان الشكايات
وشذوذ الشكايات ، ثم عقب على أسئلتهم بما فض مشاكلهم . وألهمهم اليقين
ولا عجب ، فمحبتة للأغنام ، رعيته الأليفة ، وتفكيره المسترسل فى الناس
وأحوالهم . ضمن له صفاء الرأى ، واستقامة الفهم ، وصدق الجواب
ورجع القوم من لدنه راضين مغتبطين . وتفرقوا فى المداين والقرى
يذيعون ماشاهدوا ، ويثنون على هذا الذى ألهمهم الرأى ، وأمدهم بالعون
فما أشكل عليهم ، ويدكرون لأصدقائهم عنه قصصا يتألفها الرواة وينشرونها . . .
وهكذا قُدر لهذا الراعى أن يشتهر . وأن تستفيض هذه الشهرة وتعم ، حتى
تصل إلى مسامع الشاه

كان الشاه ملكا عادلا محبوبا . وكان لا يألو وسعا فى كل ما يعود بالناس
والرخاء على شعبه . كان شديد الحذر ، يروى طويلا فى اختيار من يشرفون
على أجزاء مملكته من الحكام والولاة ، توخى العدل والنزاهة وكان لا يسمع
عن ذى مواهب حتى يحز به ويستوثق منه ، ثم يُقرَّ به منه وينتفع بمواهبه . ولما
أن رأى القوم يفيضون كثيرا فى أمر ذلك الراعى متحدثين عن مقدرته وكفاءته
صمم فيما بينه وبين نفسه على أن يزوره متكررا ليختبره ، ويتحقق مما سمع
عنه ، فر بما وجد فيه مواهب تستغل لمصلحة البلاد ومنفعة العباد
وذات ليلة استدعى الشاه خادمه الأمين « مصطفى » وقال له :

— لقد عزمْتُ على القيام برحلة متكررا . لن يصحبني فى هذه الرحلة

أحد . سأخلع ثيابي الحريرية وجواهرى ، وارتندي بعض ملابسك القديمة وعباءتك الرمادية .

صدع الخادم بأمر مولاه . فأسرع يُعد كل شيء ، لقد كان هذا الخادم أثيرا لدى الشاه ، أناله الوفاء الجم ، والاخلاص الشديد مكانة يحسده عليها خدم القصر الكثيرون ، وكان له من الحظوة مايجرؤه على الاستفهام لو شاء..! لكنه فى هذا الشأن لم يسأل ، فطالما رأى سيده يخرج متنكرا فى الليل ، فيغشى مجتمعات المدينة ، ويندس بين طرائف رعيته ، كى يقف على حقيقة ما هم فيه من يسر ورخاء ، أوبؤس وشقاء..! واستدعى الشاه خادمه مرة أخرى .

— لا تنس أن تُعد كذلك شيئا من الخبز والتمر .

خبزا وتمر يا مولاي . . ؟ نعم فالرحلة ستكون خارج المدينة . وقد تستغرق بضعة أيام .

أعد الخادم كل شيء . . وخرج الشاه متنكرا يبحث عن الراعى . كان الطريق الذى سلكه يكاد يكون منقطعاً ، وحيثما أجال بصره والتفت حوله لا يرى إلا كشبانا من الرمال . وإلا بعض الشجيرات والأعشاب المتناثرة هنا وهناك . لقد كان يهون على نفسه وعشاء الطريق . ومشاق السفر بالتحدث إلى بغله حيناً ، ومضغ تمره أحياناً . وإنه لفى يأس من وجود الراعى إذ تراءى له عن بعد ما يشبه أن يكون سحابة من الغبار مقبلة نحوه ، فسرى الأمل فى نفسه من جديد وقال :

— آه... ماذا أرى ؟ لاشك أنها قافلة من التجار وجهتها المدينة ! سأسألهم فر بما رأوا فى طريقهم هذا الراعى الذى اشتهر أمره بين الناس !

استحث الشاه دابته ، واتجه نحو السحابة . وعندما صار منها قاب قوسين أو أدنى لم يجدها — كما قدر — قافلة من التجار . وإنما رأى أمامه قطيعاً من

الأغنام يرعى على سفوح التلال . لم تألف الأغنام منظرا كهذا المنظر الجديد عليها فأجفلت تهرب من هذا الذى يمشى بدابته بينها ، أما هو فقد سرته هذه المفاجأة فقال :

آها ! قطيع من الأغنام الوادعة ؟ لا بد أن راعيها طيب ! ترى أين هو ؟
أين راعيك أيتها الأغنام . . ؟

ها أنا ذاك ! ثم وقف رجل كان جالسا أمام كهف ومشى نحو الشاه حتى إذا صار أمامه ، قال له :

— السلام عليك ياسيدى . أسمح فأقدم لك قطعة من الجبن تستعين بها على خبزك . . ؟ ليس لدى نبيذ ، ولكن الماء الذى أحمله فى قربتى عذب حل الشيخ قربة الماء المدلاة إلى جانبه ، ثم خلع ثوبه الخلق — جلد الشاة — وفرشه على الأرض بعناية تامة ، كأنما يفرش ثوبا من الحرير الموشى . . ! ثم رفع رأسه وقال :

استرخ ياسيدى إني أرى من التراب المتراكم على ملابسك وفوق دابتك أنك قادم من جهة نائية ، وسفر طويل !

جلس الشاه على الثوب . . ثم بدأ يتكلم مع الراعى ، ويصغى إلى إجاباته باهتمام شديد ! وقد أدهشه ما كان يبدو على كلام الراعى من التعقل والفطنة والتجربة . . كما أعجبه إيجاز كلمات الرجل وصراحتها . . ! لقد شعر الشاه بميل إلى الاسترسال فى الحديث مع هذا الشيخ ، ولكن شوقه الملح إلى البحث عن الراعى الشهير ، والوصول إليه جعله ينهض من مكانه ، ويقول لهذا الشيخ مبتسما .

— شكرا لك على كرمك ولطفك . هل تأذن لى فى استئناف السير ؟ !
إننى مسافر بائس والطريق لا تزال أمامى طويلة !

انحنى الراعى قليلا ، ثم قال .

— سيدى ! لست مسافرا بأثسا ! إنك تلبس ثيابك الممزقة كملك عظيم ،
وكلامك كلام من اعتاد أن يكون مطاعا ! وعيناك تشفان عن التفكير والهراسة
كعنى من اعتاد أن يأمر . . ! أعتقد أنك ملك ! ألسنت خادمك الراعى
يتحدث إلى عاهله الشاه . . ؟

أدرك الشاه عندئذ أنه هو الراعى فأمسك بيده وقال له :
إن الشاه يتكلم إلى أعقل رعيته وأحكمهم . إنه يتكلم إلى من سيكون
واليا على كل قرية مرّ بها هذا القطيع . .

أصبح الراعى واليا من قبَل الشاه على جميع القرى المحيطة به واحتفل
السكان بولايته عليهم احتفالا شاملا ، ولم يكن غريبا أن يستقبلوه بمظاهر
الحفاوة الكبرى .

فقد كانوا متشوقين إلى وال يسوى بينهم بالعدل ويُبدل للضعيف من
القوى ، ويوطد دعائم الأمن الذى طالما تَمَنَّوْهُ وحنوا إليه . . ومن أقدر على
الاضطلاع بهذا العبء من هذا الذى كانوا يلوذون برأيه فى أيام المحن
والضيق . . ؟

ترك الوالى الجديد كهفه القديم ، كما ترك رعى الأغنام ، واتخذ له بيتا
أبيض يملؤه الخدم وتحف به حديقة غناء ! واستبدل بملابسه الأولى ثيابا
أخرى من الديباج تليق بمنصبه الجديد . واقتنى من الجمال والخيل والبغال
ما ينقل متاعه من مكان إلى مكان كلما أراد الارتحال .

أحب السكان هذا الوالى حبا جما ، ووثقوا به ثقة تامة ، واتخذوا منه أبا
كبيرا يسهر على مصالحهم ، ويتحرى أوجه الخير والمنفعة لهم ، إلا أنه اعتاد
منذ ولايته أن يحمل على ظهر جمل صندوقا شَدَّ عليه بالحديد والأقفال . . لقد
كان يحمله معه فى كل مكان . !

لم يكن هذا الصندوق شيئاً فى نظر الناس ، ولكنه صار شيئاً هائلاً عند ما وجدوا الوالى يهتم به ويحرص عليه ! لقد بدءوا يتسائلون ثم يتهامون ، ثم يخترعون الأقصاصيص حول الصندوق ، ثم يسيئون الظنون بالوالى ...! ثم يخرجون من التساؤل والتهامس والاختراع والظن إلى تجريح الوالى ووصمه بأشنع التهم والأباطيل ...!

فمن قائل :

— لماذا يهتم بهذا الصندوق هكذا ؟ أليكون فى داخله كنز ...؟
ومن متهمكم :

— ربما يحفظ فيه الضرائب التى يجبيها منا ...!
ومن غاضب ثائر :

— ماذا يظن هذا الرجل ...؟ أيعن أننا ندفع الضرائب له لا للشاه ؟
أريد أن يُثرى على حسابنا ...؟ إن هذا الرجل غير أمين ..!
أخذ الشك يلح على الناس شيئاً فشيئاً ، وبدأت مراجل الغيظ فى الصدور تفور بمن أفسد المال قلبه ، ودفعه إلى الجشع والخيانة ..! لم يكن هذا الشعور شعور فرد أو جماعة فيهم ، وإنما كان شعوراً إجماعياً يشترك فيه الرجال والنساء . والكبار والصغار ، فإذا زجرت النساء !

— إنه ينهب الفقراء ...!

— صاح الرجال

— بل يسرق خزينة الشاه ..!

وتدخل الأطفال :

— إنه يخشى أن يفتح الصندوقَ إنسان ...! وإلا فلماذا يحمله معه فى كل مكان ؟



يقول المثل الايراني : « كالضوء تنتشر الأباطيل ، وكالصدق يتقبلها الناس » .. وهكذا انتشرت قصة الوالى الخائن حتى وصلت إلى القصر .. ثم أوغلت في الانتشار حتى انتهت الى الشاه .. لم يشأ أن يصدق أذنيه باده بدء ...! لم يشأ أن يؤمن بأن الرجل الذى اختبره بنفسه ، والذى كان مضرب الأمثال فى القناعة والزهد يخلق منه بريق الذهب وورنيذ رجلا شرها يستأثر بأموال الأمة ..! ولكن تواتر الشائعات وتشابهها جعله يسيء ظنا به ، ويعتقد أن كل ما امتدت اليه يد الوالى الخائن ، لابد أن يكون فى هذا الصندوق الغريب! روى الشاه طويلا فى الأمر ، وطافت بذهنه صور شتى للانتقام والتشيل بهذا الوالى الخادع ..! أيعزله ويحرمه جاه المنصب ؟ أيزج به فى أعماق السجن وغياهبه جزاء على سوء فعلته ؟ أم يقتله ويمثل به كى يكون عظة وعبرة لمن شاء من الولاة أن ينهج منهجه ، ويختط سبيله ..؟

ولكن ألا يحتمل أنه برىء ؟ ألا يجوز أنه مظلوم ، وأن خصومه وحاسديه هم الذين يكيدون له ، انتقاما لحقدهم وحسدهم ، وشفاء لغيظ صدورهم ؟ مهما يكن من أمر ، فليس من السياسة أو العدل أن أعقابه قبل مواجهته هكذا قال الشاه ثم استدعى خادمه « مصطفى » وقال له

— مصطفى . سأقوم برحلة أزور فيها إحدى ولايات مملكتى ، فأحضر أنخر ثيابى ، وأرسل فى طلب جياى وحاشيتى وعبيدى .

صدع الخادم بالأمر .. وخرج الشاه فى هذا الموكب متجها إلى البيت الأبيض مسكن الوالى الخائن ، ومقر حكمه . ولم يكذب بعد بموكبه عن المدينة وأسوارها مسيرة ساعات ، حتى أبصر عن بُعد سحابة من الغبار ، سحابة لم تلتح له حتى بدا التأثير على وجهه ، وظهر الحزن فى عينيه ..! لقد تذكر الرحلة الأولى ، تذكر سحابة الغبار التى تكشفت له عن قطيع من الأغنام ، وعن راع طيب يجلس فى مدخل كهف بعيداً عن ضجة الحياة وأضوائها

كانت السحابة فى هذه الرحلة كبيرة جدا ، وعند ما انتهى الشاه إليها لم يجدها غير الوالى وخدمه ، خرجوا راكبين لمقابلة عاهلهم العظيم ! لقد كان الوالى راكبا على حصان أبيض ، وكان بجانبه جمل يحمل صندوقا كبيرا شدد عليه بالحديد والاقفال .. ! والغريب أن الجمل كان يخفقه رجال أشداء مسلحون ! ، ويسوقه رجل يحمل فى يده البنى رما طويلا ، وفى يده اليسرى خطام قرمزي يقوده منه .. ! وترجل الوالى أمام الشاه ، وانحنى الى الارض محيا ، ولكن الشاه رمقه بعين تتقد كالحجر ، ثم سأله فى احتقار وازدراء : — ماهذه القمص التى سمعتها عنك .. ؟ وأين هى الأموال التى سرقتها وأخذتها ؟ أجب ياسارق الفقراء .. !!

— مولاي ! معاذ الله أن يسرق مثلى أو يخفى أى شىء !
— لتفتح إذن صندوق كنزك هذا ! ولتُـرني كل شىء بداخله .. !

أناخ الوالى الجمل على الأرض ، ثم انحنى وفتح الصندوق بمفتاح كان معلقا فى حبل حريرى حول وسطه ، فخدق الأُمراء والقضاة فيه .. حتى العبيد تركوا أمكنتهم واندفعوا نحو الصندوق ينظرون .. ! أما الشاه فبقى فى مكانه جامدا ، فقد أدهشه أنه لم يجد فى الصندوق ما كان يتوقع .. ! لم يخرج الوالى منه ذهابا وجراهما وإنما أخرج « جلد شاة » أراه للملك ومن حوله .. ثم أخذ ببطء ينزع ملابسه الجميلة ويقول للشاه :

— أتذكر هذا الجاد ؟ إنه هو نفسه الجلد الذى جلست عليه يوم شرفتنى بزيارتك الأولى . ! هذا هو كنزى يامولاي ! هو أحسن صديق عرفت فى الحياة . لقد حرصت عليه ، واصطحبته معى فى كل مكان ، ليذكرنى بأيامى الأولى .. بالأيام التى كنت أهيى فيها على وجهى بين التلال كراع فقير ..
لقد خشيت يامولاي من الحظ الباسم .. خشيت أن تطغى السعادة الطارئة

على فأنسى ما كنت عليه أولا ، وأنى ما كنت أملك شيئا أكثر من « جلد شاة » كما خشيت على نفسى شر الطمع والغرور ، وأردت أن أتذكر أنه يجب أن أظل متواضعا ..

وحرصت عليه فوق ذلك يامولاي مخافة مثل هذا اليوم ! مخافة ان يأتى يوم يغضب على فيه مولاي فيطردنى ويردنى إلى حالتى الأولى .. إلى دنيا الشظف والهيمان فى بطون الوادى .. ! فيكون هذا الصديق القديم عوناً لى كما كان ..

لم يستطع الشاه أن يغالب انفعاله عندما سمع هذه الكلمات الهادئة المؤثرة لقد أحس الندم فى أعماقه عما بدر منه لهذا الشيخ المجرب ، وشكر الله على أنه لم يتسرع بعقابه متأثراً بالأذى كاذيب التى لا كهـا الناس حتى أوشكت أن تؤثر عليه .. ! وقد شاء أن يُشرف هذا الوالى الممتاز ، ويعلم إعجابه . فأمسك بيده وقبّله وقال له :

— أيها الرجل العاقل ! أنت يا أعقل رجل بين أفراد رعيتى ! ستكون بعد اليوم أكبر رجل فى مملكتى !

وهكذا شهدت إيران راعيا يرفعه عقله وتسمو به عفة نفسه إلى أكبر مناصب الدولة ومع ما أحاط به من مظاهر العظمة ظل متواضعا ، محافظا حتى الموت على « جلد الشاة » ... على هذا الذى كان أوفى أصدقائه وسرَّ سعادته فى الحياة !

عبد العزيز عتيق

مدرسة محمد على الملكية للبنات

١ - الأدباء

للمستأذنة السبغة

تختلف عقول الناس باختلاف وجوههم ، فكما لا يتشابه وجهان تشابهها
 تاما كذلك لا يتشابه عقلاان ، غير أن صفات عامة تشترك فيها عقول طائفة
 من الناس لا يحدون بجنس ولا زمان ، فيكونون جنسا عقليا واحدا ، ويسمى بهم
 الناس باسم عام يشملهم : كالأدباء ، والفلاسفة ، والعلماء ، والرجعيين ، والمجددين . . .
 وسنتكلم عن الطبيعة العقلية العامة لكل طائفة من هؤلاء في مقالات متتابعة
 إن شاء الله ، ومقال اليوم خاص بالكلام عن عقلية الأدباء أو التكوين النفسى
 للأديب أو الشاعر .

ونريد بالأديب هنا منشىء الكلام الجميل أو حائك الكلام الرائع ، فنحن
 نضيق معناها ونقصره على الناحية الإيجابية للأديب ، وهذا اللفظ يشمل
 الشاعر والنثر الفنى ، إذ لا فرق فى الحقيقة بين إنتاجهما إلا فى الوزن والقافية ،
 ومرادنا بروعة الكلام وجماله شعرا كان أم نثرا قدرة الأديب على التعبير ،
 وهى المقدرة الفنية على نقل القارىء إلى جو القائل ، وبقدر هذه المشاركة العقلية
 بين القائل والقارىء يختلف التعبير قوة وضعفا :

١ - تمتاز عقلية الأديب بقوة المظاهر النفسية الثلاثة : الوجدان ، والفكر ،
 والإرادة ، وقد يبدو هذا رأى غريبا ، إذ المعروف أن الشعراء يمتازون
 بقوة الوجدان فقط ، والذى حبا الناس إلى هذا الظن أن الشعراء يعتمدون

في التأثير والتأثر على الناحية الوجدانية ، ولكن العواطف العالية التي يمثلها الشعراء لا يمكن أن تتكون إلا بعد فكر عميق ونظر دقيق ، والعاطفة عند غير الشعراء نجدها عمياء ، خرساء وأما عندهم فهي مميزة معقدة بنور العقل والفكر . فروع المقابر ، ووحشة الليل ، وحب الوطن ، والشهامة ، والحب كلها أشياء مدركة عند الشعراء وغيرهم ولكنها أوضح منهاجاً وأدق تميزاً عند الشعراء — قدمنّا أن الشاعر والناثر الفني بمعنى — ولذلك تراهم يستطيعون توضيحها لنا بعد إبهامها ، وهذا هو سر حينا للآدب ، فالشاعر يحس إحساس الناس ثم هو بقوة فكره وتذكره وخياله يصل إلى العلل والأسباب ، ويفرق بين القشور واللباب ، فيبين للناس الأسرار التي خفيت عنهم ، ويعبر لهم عما لم يستطيعوا معرفة كنهه ، فهو كالطبيب الذي يشخص الداء ويقدر وظائف الأعضاء ويفرق بين العلة والمعلول ، أو كالمهندس الذي يجيد التقسيم والتفصيل ويقدر العرض والطول ، ويتصور الصغير كبيراً حتى يقسمه ، والكبير صغيراً حتى يدركه ، ولا تنس أن الاستعارة والتشبيه محتاجان إلى القياس وهو من أدق عمليات الفكر ، ولابد للأديب من قوة الحفظ والذكر ، لأنه يلتقط كل ما يحس به ويحفظه بدقة ، ومن المعلوم أن توضيح الفكرة للسامع يستلزم وضوحها وفهمها في نفس القائل . والآديب يعبر لنا عما يحس به صدرنا ، ولا ينطق لساننا فهو من هذه الناحية أشد مناهما وأقوى فكراً ، وإذا بحثنا في الواقع وجدنا أن الأدباء أذكى الطبقات في جميع العصور والأزمان . وأما قوة إرادة الأديب فتظهر في سلطته على نفسه وحواسه ، وقوته على الإيحاء إلى غيره والتسلط على نفسه فهو من هذه الناحية كالمنوم المغناطيسي ولكنه بشكل مصغر ، فإذا كان قائد الجيش قوى الإرادة على جنوده فالأديب قوياً على فكره وأفكار الناس .

ولعل في هذا كفاية للرد على من يزعمون ضعف تفكير الأدباء وإرادتهم.

٢ — تتجه عقلية الأديب إلى الأشياء العامة التي تهتم الناس جميعا ووقع فيها الناس جميعا أو يدركها الناس جميعا حتى ولو إدراكا كليا غامضا وهذا هو السر في أن الأدب فن من فنون الجمال، لأن جميع الفنون الجميلة عامة الشكل والموضوع فأحبها الناس، وبقدر سهولة إدراكها يكون الاعتراف بها فنا جميلا، ومن هنا كان أول فنون الجمال شيوعا الموسيقا وآخرها الأدب لكثرة الفاهمين للأول وقتلهم للأخير، وعلى عكس ذلك قدرة الفن على التأثير فمع قلة المقدرين للجمال الأدب تجده أشد تأثيرا فيهم من الموسيقى في الجماهير، إذ الشعور بجمال الأدب نوع من الأدب ولا يقدر الجمال الأدبي إلا مزاج أديب، وهو مؤثر في الفكر قبل الحواس فهو من حيث الكيف أعلى فنون الجمال، ولذلك يقول العلماء إن الفكر كلما تقدم كان سروره بالمعنويات أشد. فالعبقري يسر بتخيل الورد أكثر مما يسر برؤيتها، ومن هنا كان تأثير الأدب في فاهمه أكثر من تأثير الحقيقة التي يحكيها الأدب، فأنت تسر بوصف البستان من أديب ماهراً أكثر مما تسر من البستان نفسه.

٣ — عقلية الأديب دائماً تتصور نفسها قطعة من جسم كلي هو الكون وما فيه فهي مترنمة مع كل شيء في الوجود، أو هي الصورة الصغرى للعالم الأكبر وما فيه، تناجي كل شيء، ويناجيها كل شيء إذا ملت الناس أنجذبت نحو الطبيعة وإذا سئمت الطبيعة الأرضية سرت إلى الملاء الأعلى وما فيه، وإن أبكها شيء راحت تستبكي جميع النفوس، وإن طربت لمعنى طارت تغنى به ليشاركها في اللذة كل الوجود.

ومن هنا كثرت شكايات الأدباء من الناس والزمان والمكان، لأنهم

مهتمون مخلصون لكل شيء فهم يودون أن يتم بهم ويخلص لهم كل شيء ،
ولكن ليس كل شيء أدبيا !

٤ — مواهب الأديب طبيعة فطرية فلا يمكن خلاق أديب بالكسب
دون الفطرة ، وليست هذه الفطرة مولودة دائمة ، فقد يحدث للمفطور على
الأدب ما يذهب بهذه الملكة وقد يجد على النفس غير الشاعرة شيء يجعلها
شاعرة ، ومن هنا كان الأديب مدفوعا للأدب ، لا يحمل نفسه عليه بل تحمله
نفسه إليه حملا ، سأل تليذ أستاذه في الأدب أأصلح أدبيا ؟ فقال له
إذا رأيت نفسك حين تريد الكتابة لا تستطيع أى قوة أن تمنعك عنها فاعلم
أنك أديب . ولذلك تعرض كثير من الأدباء للإيذاء بسبب منهجهم ولم يكفوا
إذ المساكين ليسوا مخيرين ، والواقع أن التنفيس عن هذا الدافع هو كل أجر
الأديب ، فلن يستفيد من تخليد اسمه شيئا ، ولن يقبض من إعجاب الناس شيئا ،
ولن يزداد من مجهوده معرفة لأنه لا يقول إلا ما يعلم ، فهو مدفوع بقوة الفن
للتنفيس عن رغبة جاححة .

٥ — لا بد للأديب من أن يكون متعمقا في اللغة التي يعبر بها ، واللغة
ألفاظ تعبر عن محسات الأمة ومعانيها ، فهي مجمع التقاليد ووعاء المعارف
وخزانة الأدب والأمل ، فعنى القوة في لغة قوم الانسجام معهم والتجنس
بجنسيتهم ، والامتزاج الروحي بهم ، ولذلك تجد الأمم الناهضة تعنى بنشر
لغاتها ، ولقد فطن المستعمرون لهذه الناحية ، فأهم ما يتجه إليه همهم في قطر
مفتوح نشر لغتهم ليجنسوا القوم بجنسيتهم وينسوهم تقاليدهم ، ألم تر أن تعرب
البلاد المفتوحة للمسلمين كان على قدر معرفتها بلغة العرب ؟ ولذلك كان الأدباء
مظهرا لحضارة أممهم وممثلا صادقا لأحوال قومهم المعيشية والاجتماعية ،
ومصورا دقيقا لأحاسيسهم وماضيهم وحاضرهم وآمالهم ، لأن الأديب نموذج
مصغر لأمة وبيئته ، ألا ترى أنهم يدرسون بيئة الأديب ليفهموا
أقواله وميوله .

ولقد نشأ عن تأثر الأدب بالبيئة أن الآداب قديما كانت خاصة بأمتها ،
لا يهتم بها غيرها لأنه لا يدرك سر جمالها ، بخلاف حقائق العلوم ، فإنها كانت
مشاعة بين جميع الأمم ، فالعرب الذين ترجموا علوم الأمم لم يهتموا بنقل
آداب اللغات الأخرى ، ولم يرقهم شعر هو مير الذي يقدسه اليونان والغرب ،
وأما الآن فقد تبدلت الأحوال وأصبحت الدنيا كلها ممتزجة ، والكرة الأرضية
الآن أكثر اتصالا ببعضها ببعض من أجزاء مملكة واحدة في الزمن القديم ،
والقطر الواحد يحوى جميع الأجناس ويعامل جميع الناس ، فامتزج الأفراد
واختلطوا وعمت الأرض ثقافة واحدة فأصبحنا نفكر تفكيراً واحداً ، وتشابهت
نظم المعيشة ، واتحدت المثل العليا في جميع بقاع الأرض فأصبح الأدب الآن
عالمياً ، ولا فرق في منهج الأدب العام بين شاعر الصين وأديب أمريكا فاستساغ
الناس في هذا العصر ترجمة الآداب والتمتع بشمرات الأقلام ، كائناتنا من كان
الكاتب الأصلي ، والرائد العام لآداب الأمم هو الأدب الغربى ، ومثل هذا
ولكن بشكل مصغر حدث إبان اتساع النفوذ العربى . فان آداب العرب
وأشعارهم اكتسحت آداب الأمم المغلوبة وما جاورها فقلدوا شعر العرب في
فنونهم وأغراضهم وأوزانهم وقوافيهم (راجع شكوى الفاروق في إسبانيا ونشوء
الشعر القومى فى فرنسا)

٦ — عقل الأديب كالحياة لا يهتم بالمنطق ولا ينصاع لقانون فكري عام
فكل همه عند التعبير حمل القارىء على أن يشاركه في وجدانه وينتقل إلى عالمه
ولذلك تجدنا عند تقدير الأدب والأديب لا ننظر إلى صدق المعانى أو صحة
الافكار أو شرف الأغراض بل نقدره على قدرته على التعبير (سبق فى أول
المقال تفسيره) فهناك بعض الكتب العلمية موضوعاً قامت البراهين على خطأ
كثير مما فيها ولكنها مع ذلك لا تزال حافظة لمركزها الأدبى العالى ككتاب
أصل الأنواع لداروين فى الأدب الإنكيزى ، ومقدمة ابن خلدون فى الأدب
العربى وكثير من كتب الجغرافيا والتاريخ القديمة ، ولهذا لا يبلى الأدب مهما
تطاول عليه الزمن ، ولأن قوة التعبير هى أهم خصائص الأسلوب الأدبى

ترانا نعتبر كثيرا من كتب العلوم كتباً أدبية . إذا ظهرت براعة المؤلف في قوة تعبيره فكتاب تاريخ التربية لمصطفى أمين ورحلة ابن بطوطة وكتب أحمد أمين وما ماثلها نعتبرها كتب أدب مع أنها ألفت لأغراض علمية بحثية . ومقالات العقاد ودياب وهيك في السياسة اعتبرناها أدبا لقوة تعبيرها كذلك .

٧ - حواس الأديب مرهفة ، وعقله حريص على الاستقصاء والحفظ فأصبح كالمخزن المزدحم بالسلع وتكاثرت في ذهنه الألفاظ وتجاورت فاختلطت ونشأ بينها أنساب وقرابات وتلوث كل منها بما جاوره فأصبح للألفاظ عنده معاني فرعية بها يمتاز لفظ عن لفظ وأصبحت تراكيبه كأنها مصبوبة صبا لا مؤلفة من كلمات مفردة فأسلوبه كالنهر المتصل لا كالقطرات المتباعدة ، وأنت تستطيع أن تميز الأسلوب الأدبي بسهولة إذا نظرت للألفاظ فوجدتها فيه مكتسبة جلالة وأوسع معنى وأكثر اهتزازا وأروع جوارا . وكذلك أصبح للمعنى عنده ألفاظ أكثر مما وضعت له يسميها العلماء تارة مجازا وطورا كناية وأخرى تشبيها ، ولقوة ربط المعاني وتداعيها عند الأديب واختلاط الألفاظ تجده يعبر عن المسموع بحاسة الذوق فيقول صوت عذب وعن المرئي بالمسموع فيقول لها لفتات موسيقية وهكذا تجد عقلية الأدباء من أسباب تطور الكلمات في اللغات وانتقالها إلى معان جديدة .

٨ - الحاجز بين الشعور والاشعور في عقلية الأديب غير يقظ ، ولعل من أسباب ذلك إجهاده لعقله وحواسه ، واستعداده الفطري ، فأصبحت أفكاره تثب إليه من وراء الشعور كأنها وحى ، فيسميها تارة إلهاما وأخرى أحلاما ، وهذا ما حدا العرب إلى الظن بأن كل شاعر شيطاننا كما أنه يفسر ما نراه من المزاج العصبي عند كثير من الأدباء .

عظيم الشيخ

معلبات القبة

أى أم رحمة في ثيابه ؟

نشرت إحدى الصحف نبأ وفاة زميل كريم ، لم أعرفه في الحياة ،
وعرفته من خلاله بعد الوفاة ، فلقد قالت عنه : إنه كان دمه الأخلاق
جم الصنائع ، مات والداه متعاقبين ، وخلفا له ذرية ضعافا أربعة أطفال
زغب الحواصل ، فرعاهم رعاية الأم الروم ، وحاطهم حياطة الأب
الرحيم ، ولكن القدر وافاه وهو يأخذ زيتته من يوم الجمعة ، فأثار
الخبر شجونى ، وأسأل شتونى ، فأرسلت ذلك الانين ، ومتى أجدى
بكاء الباكين ؟ ولكنها زفرات تخفف ، وقد كان الفقيد مدرسا
بمدرسة دمياط الصناعية .

حمل العبء مضنياً في شبابه	وبدا الصبر ماثلاً في إهابه
لم يخف عيلة ، ولم يخش ضنكا	بل سعى دائباً بعزيمة نابه
لا يهاب الويلات تبرى عليه	كل صعب يهون في تدآبه
يكدح الليل والنهار حثيثا	عزيمة الليث في ابتغاء رغبه
مات عنه أبوه ، ثم تولت	أمه . بعد برهة من مصابه
خلفاه ، والرزء رُزءان : هذا	دون ثان قد عبَّ من أوصابه
خلفاه ، وصية كلهم زغ	ب ، فما منهم قرين كتابه
همَّ كل دُمى بها يتسلى	زاهياً معجباً على أترابه
فإذا ما طوى النهار ظلام	عاد للدار مكثرًا من طلابه
فيسليهمُ إلى أن يناموا	أى أم رحمة في ثيابه ؟
وإذا الشمس أسفرت قصد المع	هد يحيى الآداب في طلابه
حارب البؤس والشقاء فلم يخ	ضع لبؤس يحسد من آراهه

علما أن بؤسه فيه حزن لليتامي ، وذاك أقسى عذابه
 وإذا رازه السقام فقد أسنى قم كلا من روحه وإهابه
 فهم روحه تشع ضياء في شعاب الحياة بعد شعابه
 عاش في كدحه قرابة عشر بن وخمس لم يشك يوما مابه
 وأتى الموت فاستحى أن يرد به بيت أطفاله دون بابه
 فطواه الردى بعيداً عن الصبية ، حتى لا يفجعوا بمصابه

رب كفكف دموعهم بسرى فيواسيهم بفيض ثوابه
 رب بهرهم سبيل رشاد أن يضلوا في دهرنا من ذئابه
 رب واجعلهم لمصر سناء كل فرد يعزها باتسابه
 رب وارحم أخاهم أوسع الرحمه ، فلقد فاض في ربيع شبابه

عبد العظيم علي قناوى